santamariaegypt.org

الكلية الإكليريكية اللاهوتية للأقباط الأرثوذكس

مذكرات في الرهبنة المسيحية

الأنبا يوأنس

santamariaegypt.org

الرهبنـــــة Monasticism, Monachism

الرهبنة المسيحية كما ظهرت فى بادىء أمرها تجسيد لنظرية نسكية وفكرة فلسفيـــــة قوامها التبتل والتعبد فى البرارى والجبال بعيدا عن العالم فى حياة زهد وفقر اختيارى . واستخدمت كلمة رهبنة فى بادىء الأمر للتعبير عن حياة العزلة الكاملـــــــــــــة Eremiticalmode of life ، ولكنها استخدمت فيما بعد للتعبير عن حيـــــــاة الكنوبيون (الشركة الرهبانية، ... Cenobitic life) . وعلى ذلك فقد استخـــدم اللفظ (الرهبنة) فى معناه الواسع للتعبير عن الحياة التى عاشها النساك بعيدا عن العالم سواء فى عزلة كاملة او فى حياة شركة .

والمشكلة التى تقابل الدارس للرهبنة المسيحية فى طورها المبكر هى دوافع وأسبـــاب قيامها فى النصف الثانى من القرن الثالث المسيحى فى صورة العزلة ، والذى سرعـــــان ماتطوّر الى حياة الشركة .

المراجع الأساسية للرهبنة المسيحية :

(١) حياة القديس انطونيوس بقلم اثناسيوس الرسولى بابا الاسكندرية العشريـــــــــن (٣٢٨ ــ ٣٧٣) ويعتبر اثناسيوس أول من كتب سيرة عن أحد آباء الرهبنة . تتلمـــذ اثناسيوس بعض الوقت على يدى الانبا انطونيوس . ويقال انه كتب هذه السيرة فى منفاه فى مدينة تريف Tréve الواقعة على الحدود بين فرنسا وبلجيكا فى الفترة بيـــن سنة ٣٣٦ وسنة ٣٣٨م . وكان تأثير هذه السيرة قويا حتى أن المؤرخين الأوربيين يقرّون أنها ألهبت الشعور بالرغبة النسكية فى كل غربى أوربا آنذاك . ومن أمثلة مـــن تأثروا بها وحملتهم على التوبة وتغيير حياتهم القديس اغسطينوس .

(٢) كتاب بستان الرهبان The Paradise of the Holy Fathers ويعـــــــرف بأسم Lausiac History كتبه بلاديوس .... Palladius

santamariaegypt.org

استف هلينوبوليس Helenopolis في مقاطعة بيثينية بآسيا الصغرى حوالى سنة ٤٢٠ م ، بناء على طلب شخص يدعى لاوسوس Lausus الذى كان يشغل منصبا كبيرا فى بلاط الملك ثيودوسيوس الثانى (الصغير) فى القسطنطينية وبلاد يوس أصلا من غلاطية بآسيا الصغرى ، ولد حوالى سنة ٣٦٤ م . وترهب فى جبل الزيتون . زار مصر مرتين : الأولى سنة ٣٨٨ م وبقى بها حتى سنة ٣٩٩ ، أمضى منها نحو تسع سنوات مع النساك المصريين بالأديرة القريبة من الاسكندرية وفى نتريا ووادى النطرون ، وأتجه جنوبا الى الصعيد حيث زار تجمعات النساك والراهبات ووصل الى منطقة أديرة باخوميوس . ثم رسم أسقفا حوالى سنة ٤٠٠ . أما المرة الثانية التى وفد فيها الى مصر فكانت سنة ٤٠٦ م حيث أتى الى مصر منفيا الى أسوان بسبب مناصرته ليوحنا ذهبى الفم الذى نفى هو الآخر . وفى خلال هذه الزيارة الثانية تردد على منطقة انطنوى (ملوى) حيث أمضى بها أربع سنوات ، وزار ديرا فى أخميم وفى سنة ٤١٢ م عاد الى غلاطية .

(٣) مؤلفات يوحنا كسيان .. John Cassian الذى توفى سنة ٤٣٥ م . يعتبر كسيان فى مقدمة من كتبوا عن الرهبنة المسيحية وأدبياتها وأبطالها . لم يتفق على موطنه الاصلى ، فمن قائل أنه من شرقى أوربا ، ومن قائل أنه من فلسطين أو من أواسط فرنسا . عاش ناسكا فى بيت لحم مع صديق له يدعى جرمانس ، اللذين تركا فلسطين ووفدا الى مصر بعد أن سمعا بسيرة النساك المصريين الذى ذاع وتذاك . زارا الوجه البحرى وعاشا على الأخص فى برية شيهيت ، ثم قفلا راجعين الى بيت لحم حيث سكنا مدة قصيرة ، عادا بعدها الى برية شيهيت التى استهوتهما لدرجة كبيرة ثم ذهبا بعد ذلك الى القسطنطينية ، وكانا ضمن المدافعين عن يوحنا ذهبى الفم الذى رسم كاسيان كاهنا . ثم انتقل كاسيان بعد ذلك الى مرسيليا بجنوبى فرنسا حيث أسس ديرا للرجال بأسم القديس فيكتور (بقطر) وديرا آخر للعذارى .

santamariaegypt.org

(٤) تاريخ المتوحدين فى مصر .... Historia Monachorum in Aegypto

وقد أثبت بعض مشاهير النقّاد صحة نسبة هذا الكتاب الى روفينوس الاكويلى ، الذى زار مصر نحو سنة ٣٧٢م وأمضى بها نحو ثلاثة عشر عاما .

(٥) التاريخ الكنسى لسوزومين Sozomen ، وقد وضعه المؤلف بين سنتى ٤٣٩ ، ٤٥٠م وهو ذو قيمة كبيرة بالنسبة للرهبنة فى بلاد الشام وآسيا الصغرى فى الفترة المبكرة من ظهورها .

(٦) كتاب "حياة باخوميوس" وقد كان أقل انتشارا من سيرة انطونيوس التى كتبها اثناسيوس ويمتاز بكشفه للروح العظيمة التى كانت تغذى هؤلاء النساك . ولدينا عدة ترجمات لهذه السيرة باللاتينية واليونانية والسريانية والقبطية الصعيدية والقبطية البحيرية ولدينا ترجمة نشرها القمص عبد المسيح المسعودى وطبعت بالقاهرة سنة ١٨٩١م وهى عبارة عن نسخة خطّية فى المكتبة البطريركية ، مأخوذة عن مخطوطة بدير أبى مقار يرجع تاريخها الى سنة ١٢٥١م ، وهذه مترجمة عن نسخة يونانية أقدم منها .

(٧) الكتابات النسكية للقديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس الثيولوغوس ويوحنا ذهبى الفم ونيلوس السينائى وايسيذوروس الفرمى وايبروسيوس وافسطينوس وجيروم فى بعض رسائله وكتابه عن حياة النساك .. Lives of Anchorites .

اعتراضات ضد الرهبنة المسيحية :

ثمة اعتراضات ضد الرهبنة المسيحية يحاول أن يثيرها فريق من معارضيها . وتتلخص هذه الاعتراضات أساسا فى الاتى :

(١) أنه ليس لها سند من الكتاب المقدس . وأنها استمدت نظامها النسكى مما سبقها من أنظمة النساك الوثنية أو اليهودية .

santamariaegypt.org

(٢) أن مبادئها وممارستها تضاد مفاهيم الايمان المسيحى ، لأنها تعتمد فى نظامها الروحى على اماتة الجسد عن طريق ممارسات جسدية خارجية كالصوم والمطانيات والعمل اليدوى وتهمل عمل النعمة والايمان والتجديد الداخلى .

(٣) أن الرهبنة هروب من العالم ومافيه من شر ، وفروض أن الانسان يجاهد حيث هو كما أنه لافائدة عملية تعود على الكنيسة والمجتمع من وراء الرهبنة .

وسوف لانجيب على هذه الاعتراضات ونفنّدها واحد فواحدة . لكننا قمنا بذلك خلال العرض الذى نقدمه فى الصفحات التالية .

الرهبنة المسيحية وأنظمة النسك غير المسيحية

الرهبنة بمعنى الحياة النسكية الانعزالية لم تكن قاصرة على المسيحية ، ولم تكن المسيحية هى البادئة بها بل وجدت بهذا المفهوم قبل العصر المسيحى بقرون عديدة عند الهنود والمصريين القدماء والاغريق واليهود . كثيرون — لاسباب مختلفة وفى عصور متباينة — زهدوا العالم وبارحوه عاكفين على الصوم والتأمل مكرسين ذواتهم لحياة أسمى .

والسؤال الآن : هل الرهبنة المسيحية استمدت أصولها من الأنظمة النسكية التى عرفت عند هذه الشعوب ؟ وللاجابة على هذا السؤال لابد لنا أن نستعرض بعض المفاهيم والطقوس النسكية عند هذه الشعوب ، ونقارن بينها وبين النسك ومفهومه فى الرهبنة المسيحية .

أولا : عند الهنود :

يرجع العالم الالمانى هلجنفلد A.Hilgenfeld بأصل الرهبنة المسيحية الى البوذية وشجع على ذلك ما أكتشف أخيرا من آثار الفكر فى الادب المسيحى المبكر ، كما أكد ذلك العالم الأثرى بترى .. Petrie فى كتابه Personal Religion in Egypt

santamariaegypt.org

تأثر الحياة النسكية المصرية بالهندية . لكننا لانستطيع أن نسلم بهذا الرأى لان هذا التأثر المذكور غير واضح ، فضلا عن وجود أسباب رئيسية تدعونا لرفض هذه النظرية وذلك بالنظر الى النقاط الاتية :

(١) مبادىء النسك البوذى :

على الرغم من وجود نوع من التشابه الظاهرى بين النسك البوذى والرهبنة المسيحية كما يحدث عادة بين الانظمة النسكية بصفة عامة ، لكن أوجه التعارض بينهما كبيرة . فبموجب التعاليم البوذية نلاحظ الاتى :

أ — تعلم البوذية أن الخلاص قاصر على التنسك بحسب مفهومها

ب — تزدل البوذية فى نظامها النسكى العمل اليدوى وتتركه للمستجدين بينما الرهبنة المسيحية لا تعلم بأن الخلاص قاصر على اتباعها كما أنها تقدس العمل اليدوى وترى أنه لازم . وحياة الشركة الرهبانية التى بدأها باخوميوس كان العمل اليدوى الصناعى يمثل فيها عنصرا بارزا . يضاف الى ذلك أن الرهبان المسيحيين عاشوا عن طريق العمل اليدوى ، بينما اعتمد رهبان البوذية على التسول . وليس أدل على ذلك من القصة الآتية التى أوردها كتاب بستان الرهبان .

" زار احد الاخوة الاب سلوانس فى جبل سنيا ، فلما رأى الاخوة منكبين على العمل قال للشيخ لاتعملوا للطعام البائد أيها الاب ، لان مريم اختارت النصيب الصالح . فقال الشيخ لتلميذه — أعط الاخ صحفا " انجيلا " وأدخله الى قلاية خالية ، ففعل . ولما حانت ساعة الاكل بقى الاخ منتظرا على الباب مترقبا وصول من يسأله الحضور الى المائدة فلما لم يدعه أحد نهض وجاء الى الشيخ وقال له — هل أكل الاخوة اليوم يا أبانا ؟ فقال له نعم . فقال له ولماذا لم تدعنى للاكل معهم فأجابه الشيخ ذلك لانك رجل روحانى ولست محتاجا الى الطعام ، وأما نحن فجسديون نحتاج الى طعام ولذلك نحارس العمل وأما أنت فقد اخترت النصيب الصالح تقرأ النهار كله ولاتحتاج الى طعام . فلما سمع الاخ هذا الكلام خر ساجدا وقال " اغفر لى يا أبانا " فقال له الشيخ " أعلم اذن أنه لاشك فى أن مريم تحتاج الى مرثا لان مريم مدحت بمرثا " .

santamariaegypt.org

جـ — يضاف الى ذلك أيضا ان البوذية لم تحرم بأكل اللحم باعتباره من الممنوعات ، بينما الرهبنة المسيحية لم تحلم بذلك ولا تمنع أكل اللحم الا لمن يريد أن يحيا حياة اكثر تقشفا .

د — والبوذية ليس فيها أى أنظمة للعبادة الجماعية على عكس ماتراه فى الرهبنة المسيحية .

هـ — أخيرا فاننا نرى أن الجماعات النسكية الهندية (Indian Orders) لم يكن لهـا نظام يحكم نساكها (رهبانها) بل أظهر هؤلاء استقلالا متميزا فى التجوّل حيث شاءوا .

(٢) فى الهند تطورت حياة التوحد الى حياة الجماعة كما هو الحال فى الرهبنة المسيحية فى مصر . فلو كانت الرهبنة المسيحية مجرد تقليد لنظام النسك الهندى لكان من المتوقع انها تبدأ بحياة الشركة . لكن التاريخ يثبت عكس ذلك . فقد اظهر كلاهما تطورا مشابها من التوحّد الى حياة الشركة .

(٣) لايمكن تقصى آثار ارتباط مشترك بينهما . فعمليات الحفر كشفت عن احتمالات تأثيرات هندية ترجع غالبا الى القرن الخامس قبل الميلاد فى فترة الاحتلال الفارسى لكل من مصر والهند . ففى مدينة ممفيس اكتشفت رؤوس صغيرة من النحاس لأجناس مختلفة التى تجمعت هناك . كما وجدت مناظر مصورة لرجل منغولى من التبت وامرأة آرية من البنجاب وشخص جالس بطريقة هندية . والصائغ الاثرى بترى Petrie يرجع المرأة الهندية الى سنة ٢٠٠ ق.م . أما تفسير هذا الامر فيرجع الى امبراطور الهند اسوكا (.. Asoka) الذى عزم حوالى منتصف القرن الثالث ق.م على نشر تعاليم البوذية فى البلاد النائية وكانت مصر من بين أقاليم البحر المتوسط التى ارسل اليها الارساليات البوذية وذلك فى حكم بطليموس فيلادلفس . لكنهم لم ينجحوا فى اقامة أية منظمة بوذية .

كانت مصر ترتبط بالهند بروابط تجارية وكانت التجارة بين الاسكندرية والهند — وهى التى حملت التجّاب الى مزيد من الاهتمام بتلك البلاد النائية — قد بلغت أقصى درجة من الازدهار فى اواخر القرن الثانى واوائل الثالث الميلاديين . لكن هذه التجارة

santamariaegypt.org

اخذت في الاضمحلال بعد ذلك • ويمكن القول انها توقفت كلية حوالى سنة ٧٥ م وكنتيجة لذلك فان اهتمام الاسكندرية بالهند لم يعد له وجود قبل ظهور الرهبنة المسيحية بسنين طويلة • وأن كان من المحتمل ان عددا قليلا من الهنود قد بقى بالاسكندرية التى كانت كمدينة دولية آنذاك • لكن الحاجز الجنسى واللغوى منع قيام صلة وثيقة بالسكان الاصليين وعلى ذلك — وكما يقول المؤرخ ماكين .. Mackean لايمكننا ان نسلم بأن الاقباط تأثروا بالافكار والممارسات الدينية الهندية •

ثانيا : عند الاغريق :

كان التنسك ظاهرة مميزة فى الانظمة الاورنية (Orphic) والفيثاغورية Phythagorean ولكن ليس ثمة علاقة بينها وبين الرهبنة القبطية •

كانت الافلاطونية المحدثة (الجديدة) Neo-Platonism تمثل تطورا هاما فى التنسك اليونانى فى الاسكندرية فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين • لقد اختلفت عن أوضاع الفلسفة المبكرة بتأكيد جانب الحياة التأملى بدلا من جانبها العملى وتمسك اتباعها بأن النفس اذا تطهرت من الافكار الدنيوية تستطيع الوصول الى التأمل فى الله وقالوا ان التحرر من الاهتمامات المادية يمكن تحقيقه بالعزلة والنسك • وهكذا نرى فى الأفلاطونية الجديدة الميل الى الاعتزال عن العالم حاويا معه الحياة النسكية والتأملية التى هى من مميزات الرهبنة المسيحية • ومع ذلك فلا يمكن ان نسلم بأن الرهبنة المسيحية استمدت أصولها من أنظمة النسك الاغريقى للأسباب الآتية :

أ) كانت هذه الفلسفة يتبعها بحماس كثير من المفكرين فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين وأثرت بعمق فى الفكر المسيحى • لكنها على الرغم من ذلك فقد كانت معروفة لقلة من الناس وعلى وجه الخصوص للمثقفين ثقافة هيلينيه (يونانية) يقابل ذلك من الناحية الأخرى أن الرهبنة القبطية كانت حركة قبطية خالصة قام بها وتبعها رجال كانوا يجهلون

santamariaegypt.org

اليونانية غالبا • ومن المستحيل أن نفترض ان سكان الريف في صعيد مصر مثلا كانوا متأثرين بالافلاطونية الجديدة بدرجة ينتقلون معها الى الحركة الرهبانية •

ب) ويبدو ان الافلاطونية المحدثة ظلت موضوعا شخصيا بحتا ، ولم يكن من آثارهـــا اتباع حياة توحدية او تشكيل مجتمعات دينية •

ثالثا : عند المصريـــــين

كانت هناك نظرية تنادى بأن أصل الرهبنة المسيحية فى الوثنية المصرية القديمـــة خصوصا وأن منشأ الرهبنة كان فى مصر • ولعل ذلك يرجع الى ماذكرته بعض البقايا البردية عن بعض الحبساء المكرسين لعبادة سيرابيس ، وكان رئيسهم مقدونى الأصل يدعى بطليموس ابن جلوسياس (Ptolemy son of Glausias) مقدونى الأصـــــل فـــى ممفيس سنة ١٦٥ ق•م) وهناك أيضا فى البرديات ذكر لأبوللونيوس شقيق بطليموس واثنتـــان تدعيان Thaues & Taous والاثنتان الاخيرتان كانتا كاهنتين عرفتا باسم التوأمتيـــن ربما لأن الأخوات التوائم كن يختارن لهذا الغرض •

كان بطليموس صديقا لوالدهن المتوفى وحصل لهن على هذه الوظيفة وكان حاميـــا لهما • ويبدو أنهما لم تكونا متعلمتين عاشتا فى الهيكل يقدمن لسرابيس التقدمات التى كانت تحمل من أجل رفاهية الأسرة المالكة وكانتا تشتركان فى الاحتفالات الجنائزية لأبيس • وبهذه الطريقة حصلتا على مسكن ودخل وأشياء عينية من الخبز والزيت والكتان • هاتان الحبيستـــان كانتا من اصل أجنبى (عرفتا باسم .. Katokoi) ومعناها المملوكتان لسيرابيس •

ويبدو أن هؤلاء الحبساء كانوا قليلين فى العدد ، وكانوا يعيشون فى الهيكل او فـــى ملحق به لفترات مختلفة يمكنهم ان ينهونها متى أرادوا • وكان مسموحا لهم بالاختلاط بالعالم الخارجى لكن لم يكن مسموحا لهم أن يتركوا حدود الهيكل • ويبدو أنهم كانوا يأتون لأسباب

santamariaegypt.org

متنوعة على الصالح او طالب المشورة من الاله سيرابيس الذى كان هو اله الشفاء • والبعض كانوا يمارسون وظائف كهنوتية ، ويبدو انهم كانوا وسطاء للطالبى مصرفة المستقبل ولذلك كانوا يوجدون بالمعابد كثيرة الزوار • كانوا فقراء جدا وكانوا يسمون انفسهم شحاذين ولكن هدفهم وطريقة حياتهم كانت مختلفة كل الاختلاف عن تلك التى للراهب المسيحى • لم يكونوا متبتلين (غير متزوجين) ولا متميزين بالغيرة الدينية لم يمارسوا الحبس الشديد من أجل التوبة ، ولم يكن فقرهم الذى يشكون منه يشبه بأى حال نسك الرهبان المسيحيين •

أضف الى ذلك انه ليس هناك أى تأييد فى وثائق الرهبنة لمثل هذه النظرية • لقد كان الاتجاه العام للرهبان المسيحيين مضادا من كل وجه للوثنية •

هناك نقطة واحدة نحتاج الى فهمها • لقد حاول البعض تأييد الرأى القائل أن باخوميوس أب الشركة كان راهبا للاله سيرابيس والمشكلة تدور حول الوقت الذى امضاه باخوميوس فى مكان يدعى شنوبسكيون (Chenoboskion) (موقعها الحالى قصر الصياد مركز دشنا محافظة قنا) أو شنيسيت (.. Schenesit) فى الصعيد الأعلى بعد أن ترك الجيش •

ووفقا للرواية التى وصلتنا باليونانية ، فانه بعد أن آمن بالمسيح نال المعمودية ورأى رؤية تختص برسالته فى المستقبل وبعد ذلك اذ أرشده روح الله رغب فى أن يصير راهبا وبحث عن المتوحد الأنبا بالمون الذى كان قد سمع عنه • أما الروايات التى وصلت الينا بالقبطى البحيرى وبالصعيدية فتضيف الى ذلك أن باخوميوس حين اختار شينسيت اختارها لأن عددا قليلا من الناس كانوا يسكنونها ، ثم ذهب الى شاطىء النهر حيث وجد معبدا صغيرا للاله سيرابيس • هناك صلى وأرشده روح الله أن يبقى به ، وكان يزرع بعض الخضروات وأشجار النخيل لحاجاته الخاصة ولفقراء القرية والغرباء • ولم يلبث ان اعتمد فى كنيسة مجاورة • وفى نفس الليلة رأى رؤيا عن مستقبله • ثم حدث وباء فى تلك الجهات فكرس نفسه للعناية بالموتى

santamariaegypt.org

مدة ذلك الوباء . ولما وجد أنه من المستحيل أن يحيا فى وحدة بسبب الجموع التى تحيطه صمم على أن يحيا حياة التوحد فترك مسكنه والمخروات واشجار النخيل ليعتنى بها راهب مسن ثم ذهب ليبحث عن الأنبا باخوميوس الذى سمع عنه .

ونحن نلاحظ أن الرواية اليونانية لاتذكر شيئا عن المعبد الذى فى شنوبسكيون . وعلى الرغم من أن الروايتين القبطية والعربية تشيران الى هذا الأمر لكن كل ذلك لا ينهض دليلا على ان باخوميوس كان حبيسا من حبساء الاله سيرابيس ، لان الذى يحركه كان روح الله . لقد أعطى ذاته للمسيح يسوع ، ومن ثم كان رجوعه الى المعبد بعد المعمودية يعد وأمرا مستحيلا حتى لوكان مخلصا لسيرابيس . أضف الى ذلك أن خدمته للمرضى فى بيوتهم زمن الوباء — حسبما تذكر الروايتان — كان مضادا كلية لعادات أولئك الحبساء .

وبعد ، فمن الواضح أن معبد سيرابيس فى شنوبسكيون كان قد هجر منذ زمن طويل ولم يكن هناك أى حبساء لسيرابيس ، اذ أن هؤلاء الحبساء كانوا يوجدون فى أماكن مزدحمة آهلة ، بينما ذهب باخوميوس الى شينسيت لقلة الناس وهناك عاش بمفرده ، فى أغلب الظن والدليل على ذلك أنه لما ترك هذا المكان وجد أنه من الضرورى أن يبحث عن راهب مسن ليعتنى بمسكنه ومزروعاته .

وتضيف الرواية القبطية عن الهيكل عبارة " كان يسمى بواسطة القدماء " وهكذا يؤكد أنه كان مهجورا تقطعت طريق الشهرة كهيكل لسيرابيس .

رابعا : عند اليهود :

سمى جيروم (Jerome) أبناء الأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم " رهبان العهد القديم " لكن لايبدو أنهم كانوا نساكا بحال من الأحوال . علاوة على ذلك فقد كان عصرهم متقدما جدا عن وقت ظهور الرهبنة المسيحية . لقد برزت شهرتهم فى زمن صموئيل النبى . وهناك اشارات كثيرة عنهم فيما ذكر عن ايليا واليشع النبيين (٢ مل ٢ : ٣ ، ٥)

santamariaegypt.org

كما تكلم عنهم عاموس النبي (٢ : ١١) . ولكنهم اختفوا قبل العصر المسيحي بزمان طويل ولا يمكن أيضا ان يكون هناك صلة بين الناصريين أو الربابيين وبين الرهبان المسيحيين . لكن هناك طائفتين نسكيتين يهوديتين تستحقان الدراسة هما طائفة الاسينيين .. Essenes وطائفة الثرابوت Therapeutae أن طائفة الشفاء ، اذ ان العلامة بترى Petrie يرى أصل الرهبنة المسيحية في البونية عن طريق هاتين الجماعتين .

+ ألف الأسينيون جماعة يهودية ظهرت ظهور السيد المسيح بالجسد ، وكانت مزدهرة في القرن السابق للميلاد ، واستمرت حتى خراب أورشليم سنة ٧٠ م .. وان كان المؤرخون القدامى قد ذكروهم باقتضاب كبير ، لكن — بفضل ماعثر عليه في مغارات قمران .. Qumran عند الشاطئ الغربي للبحر الميت جنوبي مدينة أريحا ابتداء من سنة ١٩٤٧ ومابعدها أصبح لدينا وفرة من المعلومات عنهم .

لقد أطلق الكتّاب القدامى على هذه الجماعة اسم " الاسينيين " وهي تسمية تعني على الأرجح الأتقياء " أما هم فدعوا أنفسهم — حسبما ورد في مخلفاتهم المكتشفة — " الجماعة " أو " جماعة الله " أو " جماعة العهد الدائم " .

أما عن عقائدهم وطقوسهم وأسلوب معيشتهم ، فهي عقائد يهودية خالصة ، لكن على غير ما أوّله الفريسيون والصدوقيون . وكانوا ثائرين على الشكليات في الدين ، وكانوا يعتبرون أنفسهم " اسرائيل الجديدة " التي يجب أن تحل محل اسرائيل القديمة الغاطسة ، الآخذة بالأمور الدنيوية . وكانوا يرون ملكوت الله ملكوتا روحيا ، ويعتقدون أنهم شعب العهد الجديد وأن أعظم الوصايا هي محبة الله ومحبة القريب . كانوا يقيمون عشاء مقدسا يردّدون فيه الصلوات والترانيم . وكانت لهم معمودية — وهي نوع من الوضوء أو الاغتسال — يمارسونها مرتين كل يوم . وكانوا يؤمنون بأن تلك الآيام التي يعيشون فيها هي الأيام الاخيرة ، ولذا ينبغي الاسراع بالتوبة لأنه قد اقترب ملكوت السموات ... أما وسيلتهم الى ذلك فكانت اماتة شهوات الجسد ، والجهاد الروحي في عزلة عن صخب الحياة . والى جانب ذلك

santamariaegypt.org

مارسوا وسائل الزهد . وامتنع بعضهم عن الزواج ، وان كان البعض الآخر قد اقر الى الزواج على أنه ضرورى لحفظ الجنس ، وكان بعضهم متزوجا بالفعل لكنهم بصفة عامة كانوا يقللون من شأن المرأة .

كانت جماعة الأسينيين تمثل طائفة سرية مغلقة ، تميل الى الاشتراكية ولم تكن لأى من أعضاء الجماعة ملكية خاصة ، وكانت الأعمال توزع عليهم توزيعا عادلا . كانوا ينقسمون الى اربع طبقات ، وكان التمييز كبيرا جدا بينها ، لدرجة أن الذين كانوا فى الدرجة العليا يحسّون أنهم قد تدنسوا اذا اتصلوا بمن هم فى الطبقات الأدنى منهم .. كانوا يستعملون السحر ، ويعبدون الشمس بالاضافة الى تقديرهم الى ناموس موسى ، وينكرون قيامة الأجساد

ان الباحثين يشكون فى ممارسات الأسينيين النسكية — هل كانت جميعها نسكية أم أنها كانت استمرار لعادات بدائية ؟ ان نظرتهم السلبية للزواج على أنه ضرورى لحفظ الجنس ، وتمسكهم بالطهارة الشكلية الخارجية ، والوضع الطبقى بينهم واستخدامهم للسحر وانكارهم قيامة الاجساد ... كل ذلك يوضح الهوة الهائلة التى تفصل بين معتقداتهم ومعتقدات الرهبان المسيحيين .

ان الكتابات المسيحية فى القرنين الاول والثانى لاتشير مجرد الاشارة الى اسم الاسينيين لذا أخلصنا الى ذلك أن هذه الجماعة تلاشت عقب خراب أورشليم سنة ٧٠م ، كل ذلك يجعل من المستحيل وجود أى اتصال بين هذه الجماعة الناشئة فى القرن الأول وحياة الحركة الرهبانية فى القرن الرابع الميلادى .

أما جماعة الثرابوت Therapeutae طائفة الشفاء ، فهى جماعة يهودية متنسكة ظهرت فى مصر فى زمن فيلو .. Philo الفيلسوف اليهودى . وكانوا يعيشون عند شواطئ بحيرة مريوط بالقرب من الاسكندرية . ويجب عدم الخلط بينهم وبين الأسينيين لوجود فوارق كبيرة بينهم . تعلى عكس الأسينيين فقد كان الثرابوت مهتمين بالفلسفة

santamariaegypt.org

اليونانية وغير منشغلين العمل اليدوى بل أن العمل اليدوى كان محظورا عليهم . كانوا يعيشون منفردين بعيدا عن بعضهم طوال الأسبوع ، وكانوا أكثر نسكا ويتألفون من رجال ونساء . وكانوا يجتمعون رجالا ونساءا كل يوم سبت فى مكان واحد يفصلهم عن بعضهم حاجز بسيط . مثل هذا الاجتماع الذى يضم الرجال والنساء ، لم يعرفه نظام الرهبنة المسيحية .

وأخيرا لم يكن هؤلاء المتأملين النساك من اليهود الهيلينيين المتحضرين منفصلين تماما عن الرهبان المسيحيين من جهة الزمان بأكثر من قرنين ، لكن كانت ملامحهم اليهودية المميزة جدا وعدم انعزالهم عن النساء وشغفهم بالتلمود ، وعدم شغلهم اليدوى يظهر الفرق الشاسع فى قانونهم وسلوكهم بالقياس الى الرهبان المسيحيين وطريقة حياتهم وعبادتهم فى القرن الرابع المسيحى .

أسس الرهبنة المسيحية

أثبتنا قبلا أن الرهبنة المسيحية لم تستمد أصولها من أنظمة النساك غير المسيحية التى سبقتها ولم تنحدر عنها أو تتطور منها . وقلنا انها قامت على أسس انجيلية مسيحية وروحانية تعبدية تختلف عما سواها .

أخذت الرهبنة المسيحية مبادئها من حياة السيد المسيح نفسه ومن بعض شخصيات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وتدعمت تلك المبادئ بما ورد فى الكتاب المقدس من آيات .

ونود قبل الخوض فى البحث أن نشير الى أمرين جوهريين :

+ أولهما : أن الزواج أمر الهى تجله الكنيسة وتقدسه وتدعو الناس الى اكرامه . وحتى بقم القديس بولس الرسول — أكبر وأشهر المتحمسين للبتولية — تعتبره سرا الهيا مقدسا (أفسس ٥ : ٣٢) وتتعجب المانعين عنه باعتباره نجاسة وتعتبرهم من الهراطقة (١ تى ٤ : ١ — ٥)

santamariaegypt.org

+ وثانيهما : أن التبتل والرهبنة تليهما أمر اختياري • ففيما يختص بالتبتل فالأمر واضح جداً الوضوح من كلمات بولس الرسول الواردة في (١ كو ٧ : ٦ ، ٧) " اقول هـــذا على سبيل الاذن لا على سبيل الأمر لأني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا • لكن كـــل واحد له موهبته الخاصة من الله • الواحد هكذا والآخر هكذا ، من زوّج فحسن يفعـــل ومن لا يزوج يفعل أحسن " • وفيما يختص بالرهبنة التي تسير بها ريق الكاملين ، وأنهـــا أمر اختياري ، فالأمر واضح أيضاً أن هناك طريقين احدهما اجباري والآخر اختيـــاري فلما سأل ذلك الشاب الرب يسوع " أي صالح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية " كان جوابـــه عليه " احفظ الوصايا " • ولما عاد الشاب وقال " هذه كلها حفظتها منذ حداثـــتي فماذا يعوزني بعد " • كان جواب الرب عليه " ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع • • الخ فهنا الأول يقول له " احفظ الوصايا " أي أن حفظ الوصايا بذاته كافيا لأن يورثنا الحيـــاة الأبدية • هذا هو الطريق العام الذي جميع المؤمنون مطالبون به وهو اجباري وبلغـــة الأمر (احفظ) • أما في الثاني فيقول له " ان اردت أن تكون كاملاً " وواضـــح أنـــه طريق اختياري •

وتقوم الرهبنة المسيحية على أربعة أسس :

١ ــ البتولية ٢ ــ الوحدة • ٣ ــ التجرد • ٤ ــ الطاعة •

والآن نعرض لهذه الأسس :

أولاً : البتوليـــة .. Virginity

لم تكن فكرة البتولية حدثاً جديداً استحدثته المسيحية وانفردت به لأنها عرفت منـــذ القديم في بعض النظم الدينية الوثنية لدى شعوب الحضارات القديمة كالصريين والهنـــود والصينيين • كما عرفت أيضاً بين شعب الله في العهد القديم • ومن أمثلتها ايليـــا واليشع النبيان اللذان آثرا سكنى الجبال وحياة الوحدة • ويوحنا المعمدان أعظم مواليـــد

santamariaegypt.org

النساء الذين ذكرهن الانجيل أنه " كان في البراري الى يوم ظهوره لاسرائيل " ولقد ذكرنا سابقا أنه كانت هناك بعض الجماعات اليهودية المتنسكة التي عاشت وعاشت حياة العزوبة كالأسينيين والثيرابوت . وتكلم السيد الرب بلسان أشعياء مادحا المتبتلين بقوله " لايقل الخصي ها أنا شجرة يابسة لأنه هكذا قال الرب للخصيان انى أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصيبا واسما أفضل من البنين والبنات وأعطيهم اسما أبديا لاينقطع " (أشعياء ٥٦ : ٣ ـ ٦ وأنظر متى ١٩ : ١٢) .

لاشك أن مثلنا الأعلى هو السيد المسيح الذي عاش بتولا وولد من بتول احتفظت ببتوليتها الى نياحتها . وفي ذلك يقول القديس ايرونيموس (جيروم Jerome) تعليقا على أن يوحنا التلميذ هو الوحيد بين التلاميذ الذي ميّز المسيح بعد قيامته حينما أظهر ذاته لهم على بحر طبرية ولم يعرفه أحد منهم الا يوحنا " لأن البتول وحده عرف البتول ابن البتول " .

وقد تكلم السيد المسيح كلاما صريحا على البتولية مظهرا عظم سموها وقدسيتها . فبعد حديثه الى الفريسيين عن قدسية الزواج وعدم جواز الطلاق قال له تلاميذه " ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج . فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم . لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ويوجد خصيان خصاهم الناس ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يقبل فليقبل " (مت ١٩ : ١٠ ـ ١٢) . والمقصود بالخصيان الذين خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات جماعة المتبتلين الذين رفضوا الزواج ارادياً من أجل الرب . أضف الى هذا أن الأمر يصل في سموه الى أن يكون غاية المهنة " بل الذين أعطى لهم " وفي رده على الصدوقيين الذين طرحوا عليه سؤال المرأة التي تزوجت من سبعة اخوة قال " لأنهم في القيامة لايزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء " (مت ٢٢ : ٣٠ ـ لوقا ٢٠ : ٣٥) أو أن عدم الزواج هو تشبه بحياة الملائكة . ولذلك قال القديس

santamariaegypt.org

كبريانوس الشهيد مخاطبا بعض العذارى مثبتا هذا المعنى " لقد ابتدأتن والآن وأنتن في هذه الحياة أن تتمتعن بما سيكون لكن في السماء بعد القيامة لأنكن بحفظكن بكارتكن قد تشبهتن بالملائكة ٠

أما معلمنا القديس بولس الرسول فيتحدث عن البتولية حديثا نيانيا يبين فيه سموها وقوتها وفضائلها بل أنه روّج لهذا المبدأ ونادى به وتمنى لو أن الجميع أصبحوا بتوليين " أقول لغير المتزوجين انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ٠٠٠ أريد أن تكونوا بلاهم، غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب وأما المتزوج فيهتم بما للعالم كيف يرضي امرأته اذا من زوج فحسنا يفعل ومن لا يتزوج يفعل أحسن " (١ كو ٧ : ٨ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٨) ٠٠ وكلمات بولس الرسول السابقة والتي ضمنها الأصحاح السابع من الرسالة الأولى الى كنيسة كورنثوس كتبت كاجابة على سؤال وجهته اليه كنيسة كورنثوس بخصوص موضوع البتولية والزواج والمعاشرات الزوجية ٠ ويتضح ذلك من قوله " وأما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها نحسن للرجل أن لا يمس امرأة " ومن هذا السؤال يتضح أن مسألة البتولية والزواج قد ظهرت مبكرا في الكنيسة وهي لا ترتبط نقل بالرهبنة التي بدأت تأخذ وضعها على مسرح الحياة في أواخر القرن الثالث ٠ وبعبارة أخرى نقول أن فكرة البتولية لم تستحدث في الرهبنة ٠

والحق أن موجة شديدة من الحماس للبتولية اجتاحت المؤمنين منذ فجر المسيحية المبكر حتى أن بعض الأزواج والزوجات من فرط حماسهم للبتولية تسامى منهم عن الجسد امتنعوا عن المعاشرات الزوجية ، وعاشوا مع بعضهم البعض كاخوة وأخوات ٠

وفي رأينا أننا نستطيع أن نلمس هذه الناحية من الحديث الذي دار بين بطرس والسيد المسيح ٠ قال بطرس " ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك " فأجاب يسوع وقال " الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتا أو أخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا

santamariaegypt.org

لأجلي ولأجل الانجيل الا ويأخذ مائة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتا وأخوة وأخوات وأمهات وأولاد وحقولا مع اضطهادات وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية " (مر ١٠ : ٢٩و٣٠ مت ١٩ : ٢٩ ـ لو ١٨ : ٢٩) . حينما قال بطرس أنه ترك كل شيء كان يعني أيضا أنه ترك زوجته من ناحية المعاشرات الزوجية كزوجة . والمسيح العارف بالقلوب والنيات الذي عرف ما كان يعنيه بطرس بقوله هذا أجاب " ليس أحد ترك بيتا ... أو امرأة ... " ويؤكد ذلك ما قاله معلمنا بولس بخصوص هذا الموضوع " ألعلنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقي الرسل وأخوة الرب وصفا " (١ كو ٩ : ٥) . كانت زوجة نسار أختا .

والقديس بولس الرسول في (١ كو ٧ : ٨ و ١٠) يقول للكورنثيين " لكن أقول لغير المتزوجين والأرامل أنه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا . وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب ، ان لا تفارق المرأة رجلها .

* ويحاول بعض البروتستانت ممن يهاجمون مبدأ الرهبنة أن يفسروا دعوة الرسول بولس للبتولية على أنها أمر يناسب الخدام فقط ، خاصة الذين يحملون في الكرازة والتبشير وما يتطلبه ذلك من تنقل مستمر . لكن كلام الرسول في (١ كو ٧) ليس موجها لرجال الدين على اعتبار أن هذا يتناسب مع رسالتهم وأتعابها . بل أنه كلام موجه لجميع المؤمنين وفي ذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم في تفسيره للأصحاح السابع من الرسالة الأولى الى كورنثوس " يقول البعض أن هذا الحديث الخاص بالتبتل موجه الى الكهنة ، لكن ـ بحكم الكلام التالي ـ لا أستطيع أن أقر أن الأمر هكذا ، طالما أن الرسول قدم نصيحته في عبارات عامة . لأنه ان كان يكتب الى الكهنة لكان قد قال انه حسن للمعلم أن لا يمس امرأة . لكنه يطلب ذلك بصفة عمومية بقوله " انه حسن للرجل ـ وليس للكاهن فقط ـ ان حديثه كله يستمر بنفس النغمة " .

santamariaegypt.org

ونود أن نشير — ونحن فى هذا الصدد — الى أن الكتاب المقدس لم يشترط وجوب زواج الأسقف والشماس (د ياكون) نحينما يقول " يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة ... ليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة مدبرين أولادهم وبيوتهم حسنا " (١ تى ٣ : ٢ — ١٢) . فان الوجوب هنا ليس مُنْصَبًّا على مبدأ الزواج نفسه بصفة عامة ، بل هو منصب على الزواج الأول . فالمعروف أن المسيحية لاتسمح بتعدد الزوجات وبذا يكون المقصود من هذا الكلام أن من يُختار للأسقفية أو الشماسية يجب — اذا كان متزوجاً — أن لايكون قد ارتبط بأكثر من زيجة واحدة بمعنى ألا يكون قد ارتبط بزيجة ثانية بعد وفاة الزوجة الأولى ... وقد تناول هذا الأمر قوانين الرسل ومجمع أنقرة سنة ٣١٤ م ومجمع قيصرية الجديدة كما تعرّض له أيضا مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥ م .

وأخيرا ابان مركز البتوليين فى العالم المتيد القديس يوحنا الرائى فى سفر الرؤيا حينما يقول " ثم نظرت واذا خروف واقف على جبل صهيون ومعه مئة وأربعة وأربعين ألفا لهم سمة أبيه مكتوبا على جباههم ... وهم يترنمون كترنيمة جديدة أمام العرش وأمام الأربعة حيوانات والشيوخ . ولم يستطع أحد أن يتعلم الترنيمة الا ١٤٤ ألفا الذين اشتروا من الأرض . هؤلاء هم الذين لم يتنجّسوا مع النساء لأنهم أبكار . هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب . هؤلاء اشتروا من بين الناس باكورة لله وللخروف وفى أفواههم لم يوجد غش لأنهم بلا عيب قدام عرش الله " (رؤ ١٤ : ١ — ٥) .

+ والكلام هنا فى غاية الوضوح ويظهر عظم امتياز البتولية والبتوليين اذ يظهرهم أنهم ملازمون للمسيح يتبعونه حيثما ذهب ، وينفردون بترنيمة لم يستطع أحد لا آن يردد ها بل وحتى أن يتعلمها ... أما السبب الوارد فى النص السابق فهو لأنهم " لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أبكار " وفى الطبعة البيروتية للانجيل نقرأ لفظة " أطهار " بدل " أبكار " وهذه ولاشك ترجمة خاطئة وهى مدوّنة " ابكار " فى الانجيل فى الترجمة القبطية والترجمة اللاتينية الشائعة Vulgate للقديس جيروم (ايرونيموس) وكذلك فى

santamariaegypt.org

الاناجيل المكتوبة بلغات أخرى . والترجمة الانجليزية للكلمة هى .... Virgins
وفى لغات أخرى كاللغة الفرنسية Viérges وهى كلمة معناها عذراء أو بكـــــر
وهى من جهة اشتقاقها اللغوى ترجع الى الأصل اللاتينى .. Virgo - Virginis
بمعنى عذراء او فتاة . وواضح أن الفرق كبير بين ابكار واطهار . فلفظة أطهار لفظة عامة
أما كلمة أبكار فهى تحدد فئة معينة من الناس لهم سلوك خاص فى هذه الناحية . ويوضح
هذا الأمر القرينة الواردة فى الآية المذكورة " لم يتنجسوا مع النساء ... " وواضح أيضـــا
ان الأمر لا يختص بعملية الزنا مثلا ، لكن عبارة لم يتنجسوا مع النساء انما هى كنايـــــة
عن الصفة الكاملة .

ومن تلك الايضاحات والآيات الصريحة الواردة فى سفر الرؤيا — وهو السفر الذى يتضمن
المعاويات أو الاشياء العتيدة أن تكون فى العالم الآخر من كل ذلك يتضح سمو مركز الأبكار
او البتولية . ليس فى هذا العالم فحسب بل فى العالم العتيد أيضا .

هكذا سرت موجة من الحماس الشديد للبتولية وتغلغلت فى شئون الناس وضربت جذورها
بعمق فى تاريخ الكنيسة . ويؤيد ذلك ماحدث للبابا ديمتريوس الكرام البطريرك ١٢ مـــن
بطاركة الاسكندرية الذى رأس الكنيسة المرقسية لمدة ٤٢ عاما من سنة ١٨٨ الى سنة ٢٣٠م
كان هذا الأب من الناحية الشكلية متزوجا لكنه فى حقيقة الأمر كان يحيا مع زوجته حيـــــاة
تبتل كامل كما يحيا الآن مع أخته لمدة ٤٨ عاما . اختير ليكون بطريركا بواسطة سلفه البابا
يوليانوس باعلان الهى . وعلى الرغم من أنه كان انسانا عابدا ووصل الى الكرسى البطريركى
بطريقة الهية أعلنت وقتذاك لكن بعض شعبه احتجوا لكونه متزوجا ، وعلى الرغم أيضا من ان
الوحى الالهى بلسان الرسول بولس يسمح للاسقف أن يكون متزوجا " يجب ان يكون الأسقف
بلا لوم بعل امرأة واحدة " (١ تى ٣ : ٢ ، تى ١ : ٦) .

وهكذا الى أن ظهر ملاك الرب فى حلم وأعلمه بوجوب اعلان او كشف حقيقة أمره جهـــارا
حتى تهدأ القلوب المضطربة ونصاً كشف لشعبه هذه الحقيقة بعد انتهاء قداس الأحـــد

santamariaegypt.org

وتأكد ذلك أمامهم بمعجزة الهية حين لم يستطع جمر النار أن يحرق ثيابه ولاثياب من دعيت زوجته . ولاشك أن هذا يبين الاتجاه الروحي النسكي الذي انتهجه مسيحيو تلك العصور (القرن الثاني الميلادي) قبل ظهور الرهبنة بسنوات طويلة .

أما آباء الكنيسة وكبار المعلمين المسيحيين فقد مدحوا العفة والبتولية والطهارة وأبانوا جمالها وقدسيتها وقوتها ... ونظروا للزواج على أنه شيء جيد يأتي في السمو بعد التبتل ، لمن لا يستطيعوا ضبط ذواتهم . ومن أمثلتهم بوليكاربوس (تلميذ يوحنا الرسول) واغناطيوس وهرماس وأثيناغورس وايرونايوس واكليمنضس الاسكندري وترتليانوس وأيضا مثوديوس أسقف صور الذي استشهد حوالي سنة ٣١٠م وكتب كتابا رمزيا في هذا الصدد أسماه وليمة العشرة العذارى ، والقديس اغريغوريوس أسقف نيصص شقيق باسيليوس الكبير الذي أفرد لها كتابا خاصا . ولعل من أكبر دعاتها والمتحمسين لها العلامة أوريجينوس الذي وضعها في مكانة عالية بالنسبة للمسيحيين ووصفها بأنها " التقدمة المقدسة التي تسر الله " ومن أقواله " لقد سمح الله لنا بالزواج لأننا لسنا جميعا أكفاء للحالة الأسمى ألا وهي حياة البتولية الكاملة " (ضد كلسوس ٨ : ٥٥) ومن أمثلتهم القديس كبريانوس الشهيد أسقف قرطاجنة والقديس أمبروسيوس أسقف ميلان ومعلم أوغسطينوس الذي كتب ثلاثة كتب عن هذا الأمر الى أخته مرسالينا وفيها يقول " ليست البتولية مستحقة المديح من حيث أنها توجد في الشهداء بل لأنها هي نفسها تصنع الشهداء . ومن يستطيع أن يفهم بفهمه البشري ذلك الذي لا تحويه الطبيعة في قوانينها ، أو من يقدر أن يشرع في أسلوب مألوف ذلك الذي هو فوق مستوى الطبيعة . لقد استحضرت البتولية من السماء مايمكنها من أن تحاكيه على الأرض " . وبعد أن وصف البتوليين بملائكة الله قال " وماقلته ليس كافيا طالما أن الذين لا يتزوجون/هم كملائكة السماء فلا تعجب اذن اذا ماقورنوا بالملائكة الملتصقين برب الملائكة . من يقدر اذن ان ينكر أن هذا النهج من الحياة له نبعه في السماء . ولم نجده بسهولة على الأرض الا بعد أن نزل الله آخذا جسدا بشريا " .

santamariaegypt.org

ومن امثلة المتحمسين للبتولية أيضا القديس جيروم الذى تحمس لها حماسا شديدا فى كتاباته وكتب عنها رسالة مسهبة الى عذراء من شريفات روما تدعى يوستوخيوم Eustochium بدأها بالعبارة الآتية " اسمعى يا ابنتى وانظرى وأميلى سمعك وانسى شعبك وبيت أبيك فالملك يشتهى حسنك " هكذا يتحدث الله فى المزمور ٤٤ الى النفس البشرية حتى اذا ما اتبعت مثال ابراهيم تخرج من أرضها ومن أقاربها وتترك الكلدانيين أى الشياطين وتسكن فى أرض (كورة) الاحياء هذه التى من أجلها فى مكان آخر تنشد النبى قائلا " وأنا أؤمن أنى أعاين خيرات الرب فى أرض الأحياء (مز ٢٧ : ١٣) ولكن بالنسبة اليك ليس كانيا ان تخرجى من أرضك مالم تنسى شعبك وبيت أبيك . وهكذا اذ تزدرين بالجسد تنسمين الى حضن عريسك . لا تنظرى الى الخلف هكذا قال الكتاب " لاتبقى فى الدائرة ، اهرب الى الجبل لئلا تمسك (تهلك) (تك ١٩ : ١٧) انه لا يليق بمن أمسك بالمحراث أن ينظر الى الوراء أو يرجع الى بيته من الحقل ، ولا بعد أن يلبس رداء المسيح أن ينزل من السطح من أجل كساء آخر " .

على أى حال لسنا فى مجال تناول هذا الأمر واثباته من الناحية العقيدية لكننا نعرض له من الناحية التاريخية فقط .

ثانيا : الوحدة والانفراد

الميل لحياة الوحدة فى الصحارى والجبال والأماكن النائية بدأ يظهر منذ وقت مبكر فى تاريخ الكنيسة المسيحية ويقول المؤرخ مكارين .. Makean فى كتابه Christian Monasticism in Egypt منذ أيام المسيح كان المسيحيون على علم بشعور الاعتزال عن العالم (يو ١٥ : ١٩ ، ١٧ : ١٤ ، ١ يو ٢ : ١٥) هذه الآيات التى تشير الى اننا غرباء عن العالم ولسنا منه ويؤكد هذه الحقيقة الكتابات المسيحية المبكرة . ولاشك ان هذا الاتجاه قد تقوى بطبيعة الحال منذ وقت مبكر نتيجة الاضطهادات التى شنتها الدولة ضد المسيحية الناشئة ، وأيضا نتيجة تزايد الفساد وانتشاره فى العالم .

santamariaegypt.org

وحياة السيد المسيح كمثل أعلى للمؤمنين اوجدت هذه الرغبة وايقظتها واصلتها كثيرا ماكان المسيح ينفرد في الجبل ويصلي)(مر ٦ : ٤٦ ، لو ٦ : ١٢) وهذا الامر لم يكن ليحدث مرة واحدة بل بصورة متكررة حسبما يقول لوقا الانجيلي " كان في النهار يعلم في الهيكل وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل الذي يدعى جبل الزيتون " (لو ٢١ : ٣٧) وجدير بالملاحظة أن السيد المسيح قبل البدء في خدمته الكرازية اقتاده الروح الى البرية حيث أمضى أربعين يوما هناك (لو ٤ : ١ و ٢) كما أنه أظهر مجده على جبل عال في حادث التجلي (لو ٩ : ٢٨ — ٣٦) . ومن هذا نلمس أن الرب يسوع لم يكن يلجأ الى الجبل أو مواضع الخلاء باعتبارها مواضع ضيقة بعيدة عن محاضاء العالم ليعلم الجموع ، بل استخدم هذا في حياته الخاصة لما في ذلك من نفع للمؤمنين اذا ماحذوا حذوه .

وكان لسيرة ايليا ويوحنا المعمدان والقديس بولس الرسول أثر على الفكر المسيحي في هذه الناحية . ويؤكد ذلك القديس جيروم ويوحنا كاسيان . فايليا عاش عند نهر كريت وكانت الغربان تطعمه (١ مل ١٧) ويوحنا المعمدان كان في البراري الى يوم ظهوره لاسرائيل " (لو ١ : ٨٠) الأمر الذي لأجله يدعوه القديس فريسوريوس النزينزي سائحا كما يدعوه القديس يوحنا ذهبي الفم قائد الرهبان ومعلمهم .

وبولس الرسول اناء المعهد الجديد المختار ، بعد أن آمن بالمسيح انطلق الى الصحراء العربية شرقي دمشق " لما سُرّ الله الذي افرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيّ لأبشر به بين الأمم للوقت لم أستشر لحما ودما ولاصعدت الى أورشليم الى الرسل الذين قبلي بل انطلقت الى العربية " (غل ١ : ١٥ — ١٧) . فلا عجب اذن أن امتدح بولس في رسالته الى العبرانيين مسلك من عاشوا في البراري والجبال والمغائر وشقوق الأرض . قال بعد أن استعرض بعض أبطال الايمان " وهم لم يكن العالم مستحقا لهم ، تائهين في براري وجبال ومغائر وشقوق الأرض " (عب ١١ : ٣٨ — ٣٩) . ولعل كلمات الرسول هذه تكون صدى لكلمات الرب نفسه " للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه " (مت ٨ : ٢٠) . فلا عجب بعد هذا أن اتجه

santamariaegypt.org

المسيحيون منذ وقت مبكر الى الأماكن المقفرة والبرارى والجبال ليحيوا فى وحدة مع الله ويعبّر عن ذلك القديس يوحنا سابا المعروف باسم الشيخ الروحانى فى قول له يناجى فيه الله (أقطع حديثى مع الناس لأتحدث معك ، أغلق بابى لتفتح أنت لى بابك . أحرم نفسى من الشمس الطبيعية لتشرق أنت لى ياشمس البر والشفاء فى أجنحتها .....)

ولاشك أن أماكن الخلوة ناتجة جدا ولازمة لانماء الروح ، فبقدر اتساع الصحارى والبرارى بقدر ما تتسع آفاق النفس والقلب والفكر ... وقد أفاض الآباء النساك والقديسون فى الكلام عن بركات الخلوة وأهميتها مما لايدخل فى موضوع دراستنا التاريخية .

ثالثا : التجـــــــــرد

التجرد أو الفقر الاختيارى هو أحد أركان الرهبنة الأساسية وهو أن يتجرد الانسان من جميع مقتنياته باختياره وارادته وأن يحيا فقيرا كما عاش سيده ومعلمه المسيح .

وتعاليم السيد المسيح فى هذه الناحية توضح هذا الأمر بصورة عجيبة . فقد حذر من المال وسلطانه ومحبته . وقد بدأ ذلك بسطته على الجبل وهى بمثابة الخطاب الافتتاحى الذى يعبر عن اتجاهاته " لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض ... بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا (مت ٦ : ١٩ ــ ٢١) وفى معرض حديثه عن وكيل الظلم قال " لايقدر أحد أن يخدم سيدين . لأنه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لاتقدرون أن تخدموا الله والمال " (لو ١٦ : ١٣) أضف الى هذا كلماته " أنه يعسر أن يدخل غنىّ الى ملكوت السموات ... مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنىّ الى ملكوت الله " فلما بهت التلاميذ من هذا الكلام وقالوا " اذن من يستطيع أن يخلص " نظر اليهم وقال " هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شىء مستطاع " (مت ١٩ : ٢٣ــ٢٦) . ثم أضاف الى ذلك قوله

santamariaegypt.org

" كل من ترك بيوتا أو أخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية " (مت ١٩ : ٢٩) ووجه الأهمية فى كلام السيد المسيح أنه رسم المبدأ ووضع الى جانبه الجزاء فالسيد يدعونا الى أن نترك مقتنيات هذا العالم لنرث أضعافها فى السماء .

وحينما تقدم رئيس من الأغنياء وسأله " ماذا اعمل لأرث الحياة الأبدية " أحاله السيد الوصايا . ولما أعلن الرجل أنه حفظها منذ حداثته قال له " يعوزك أيضا شىء . بع كل مالك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى " فلما سمع الرجل ذلك حزن لأنه كان غنيا جدا . أما تعقيب الرب على ذلك فكان قوله " ما أعسر دخول ذوى الأموال الى ملكوت الله " (لو ١٨ : ١٨ ـ ٢٥) . لاعجب اذن أن فهم المسيحيون أقوال الرب هذه كما خرجت من فم الالهى الطاهر ونفذوها حرفيا .. ولم يحدث هذا فى وقت متأخرا ولكن منذ فجر المسيحية . فقد كان المسيحيون يبيعون بيوتهم وحقولهم ويأتون بأثمانها ويقدمونها للكنيسة . وكمثل لذلك ذكرلنا كاتب سفر الأعمال أسماء برنابا وحنانيا وسفيرة (أع ٤ و ٥) .

ولاشك أن الرسول بولس بكتاباته قد غذى الرغبة فى حياة التجرد . فهو لم ينفك يحذر من محبة المال موضحا أنها أصل لكل الشرور . وطلب الى المؤمنين أن يهربوا منها (١ تى ٦ : ١٠ ، ١١) . بل قال " لأننا لم ندخل العالم بشىء وواضح أننا لانقدر أن نخرج منه بشىء ... فان كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما " (١تى ٦ : ٧) .. ولنلاحظ الكلمات التى استخدمها الرسول " قوت وكسوة " أى ما يقيت الانسان ويكسى عريه . أما الآباء القديسون النساك فقد عاشوا حياة التجرد وتركوا لنا أقوالا ثمينة وضحوا فيها النقط فوز الحروف مظهرين حياة التجرد من المقتنيات .

santamariaegypt.org

قال القديس يوحنا التبايسي (الأسيوطي) — من كبار النساك — في رسالة له عن التدابير الروحانية " والآن أبدأ في الكلام عن طقس الكمال ، لأن التجرد من المقتنيات هو ايضا هذا الكمال لكن مبدأ طريق الايمان . لأنه اذا ابتدأ الانسان بتصديق رجاء الحياة المزمعة يبدأ أن يزدري بالامور الظاهرة وحين يحتقر كل شيء موضوع أمام بصره فانه بعد ذلك يحتقر ما يتحرك في خميرة ، أعني بذلك آلام الخطية الرديئة المتحركة في داخله التي تظهر في الاعمال الخارجية التي هي محبة المجد الباطل والغضب والغيرة واحتقار الناس وحقد العداوة ... الخ . فان لم يبدأ الانسان بالتجرد عن المقتنيات لا يمكن أن يتجرد عن آلام الافكار الرديئة . وان لم يتجرد عن حركات الآلام السمجة لا يقتني نقاوة النفس التي هي مبدأ سيرة الانسان الجديد .

وقال القديس فيلوكسينوس من مشاهير النساك في الكنيسة السريانية في القرن السادس عشر له عن التجرد " الانسان لا يستطيع أن يسير في طريق الكمال مادام يملك شيئا جسدانيا لانه حسب مقدار الاقتناء تكون رباطات النفس التي تربط جناحات العقل فتعطل طيرانها في طريق السماء ... مقتنيات العالم هي أربطة للأعضاء وقيود لسائر الحواس يرتبط بها الانسان ظاهرة وداخله ... " .

ويتضح مما تقدم أن حكمة الآباء النساك في التجرد من المقتنيات هي لكي يقودهم ذلك التجرد من الشهوات وجذور الخطايا الخفية . وفي ذلك يقول القديس يوحنا التبايسي " ماذا نقول عن كثيرين ممن يظنون أنهم يدركون الكمال بالتجرد من المقتنيات ؟ بل كما أن الصوم عن الاطعمة ينبغي أن يقترن بالصوم عن الشرور هكذا أيضا يجب أن يقترن التجرد عن المقتنيات الجسدية بالتجرد عن الخطايا الرديئة لان الانسان عندما يتصرف من الأشياء الخارجية لا يتخلص في الحال من الشرور الباطنية بل يجب أن يصل الى أن لا يقتني في نفسه شيئا سوى محبة الله فقط " .

santamariaegypt.org

رابعـــا : الداعـــــــــة

الداعة كفضيلة مسيحية أمر محمود ومسلم به ... والسيد المسيح كمثل أعلى للبشرية أظهـــر الداعة في شخصه الالهي المبارك . يقول القديس بولس عبد المسيح " مع كونه ابنا تعلّم الداعة " (عب ٥ : ٨) ، " واذ وجد في الهيئة كأنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليـــب " (في ٢ : ٨) .

مصـــر مهد الرهبنة المسيحية

من الامور المستقرة بين العلماء والدارسين أن الرهبنة المسيحية ظهرت وازدهرت في مصـــر قبل غيرها من أجزاء العالم المسيحي . ولعل ذلك راجع الى عدة عوامل بعضها يتصـــل بطبيعة مصر ذاتها ، وبعضها يتناول طبيعة الانسان المصري ، والبعض الآخر يتصل بعوامـــل أخرى دينية وسياسية واقتصادية :

(أ) طبيعة مصر الجغرافية :

مصر عبارة عن واد خصيب تحيط به الصحارى والقفار من الشرق والغرب ، وتكتنفه بعض الجبـــال العالية والتلال . ان منظر القفار يبعث على الزهد في الدنيا ويميت في القلب حركات الشهـــوة نحو العالم والعالميات كما يقول مار اسحق السرياني . أضف الى هذا أن طقس مصر ومناخهـــا المتجانس تقريبا صيفا وشتاء وقلة أمطارها . كل ذلك ساعد على صلاحية الجبال والتلال والصحارى المصرية لسكنى الرهبان والمتوحدين . والمتنقل في صحراء وادي النطرون مثلا يرى بقايا التلالي المنفردة القديمة . ومعها يرى كيف هيأت الطبيعة المأوى للرهبـــــان والمتوحدين القدامى .

santamariaegypt.org

(٢) طبيعة الانسان المصرى :

الانسان المصرى متديّن بفطرته ، محب للتأمل حتى منذ عصور الوثنية . استطاع بعمق تفكيره وروحه الباطنية ان يصل الى مستويات سامية فى الحياة الدينية ، اذا ما قورن بغيره من الشعوب المعاصرة فى العالم القديم وقتذاك ، بما فى ذلك الشعوب التى ازدهرت مدنياتها ، كالشعب الاغريقى الذى تقدّم للعالم من يعتبرون آباء الفكر والفلسفة . والحضارة المصرية القديمة — التى ماتزال مخلفاتها قائمة فى المعابد والتماثيل والمسلات والاهرامات وغيرها — تشهد بما لايدع مجالا للشك ان الدين — على الأخص عقيدة الخلود والحياة الاخروية — كان هو الباعث الأول والأكبر على قيام تلك الحضارة ... وما أن وصلت المسيحية الى مصر ، ووجدت طريقها الى قلوب وعقول المصريين ، وآمنوا بها ، صقل الروح القدس شعور التدين المتأصّل فى المصريين وحبهم للتأمل ، منقيّا اياه من كل ماهو وثنى ، فغدوا عمالقة فى الروح ، أبطالا فى النسك ، شغوفين بحياة التأمل . هذا مانجده واضحا فى أقوال معلمى كنيسة الاسكندرية قبل ظهور الرهبنة من أمثال كليمنضس الاسكندرى الذى أظهر ميلا واضحا للنسك والتبتل خاصة فى كتابيه المتنوعات والمعلم . وتفى الأمر نجده واضحا كذلك فى بردية البهنسا المحررة باسم ... Oxyrhynchus Papyri

التى ترجع الى أوائل القرن الثالث الميلادى وقد اكتشفت بين سنتى ١٨٩٧ ، ١٩٠٤ أما الصائمة أوريجينوس فحياته وكتاباته تظهر أن ميلا شديدا للبتولية والنسك والفقر الاختيارى بدرجة أكبر وأوضح من أستاذه كليمنضس الاسكندرى .

(٣) العامل الدينى

يرى بعض المؤرخين أن القرن الرابع الذى شهد أوائله توقف الاستشهاد فى سبيل الايمان المسيحى فى عهد الملوك والأباطرة الرومان المسيحيين ابتداء من قسطنطين الكبير شهد أيضا موجة من فتور الحماس الدينى بين رعايا الامبراطورية الرومانية . وقد وجد الناس فى الرهبنة — بمفهوم النسك وامانة الذات وهجر العالم واحتمال المشقات فى أعماق القفار —

santamariaegypt.org

انتصارا على أهواء الجسد ، وتقديم الذات ذبيحة حية لله .. انها نوع من الاستشهاد بدون سفك دم . ولذا فقد نظروا للرهبنة — من هذه الزاوية — على أنها امتداد لعصر الاستشهاد الذى كان قد توقف .

(٤) العامل السياسى :

ونقصد به سلسلة الاضطهادات الدينية المستمرة التى كان يصبها الأباطرة والحكام الرومان الوثنيون على المسيحيين من رعاياهم . وكان نتيجة ذلك أن هرب بعض المسيحيين من وجه الاضطهاد الى الصحارى حيث وجدوا الأمان هناك . ومن أمثلة ذلك ما يذكره تاريخ البطاركة لأنبا ساويرس أسقف الأشمونيين فى سيرة البابا الاسكندرى ديونيسيوس (٢٤٦ — ٢٦٤) من أن القرن الثالث الميلادى شهد أعدادا كثيرة من المسيحيين تهرب الى الصحارى المصرية (وادى النطرون والصحراء الشرقية) من الاضطهاد الرومانى . ومن بين هؤلاء أسقف مليج الذى هرب الى الصحراء الشرقية ولم يعد يعرف له خبر بعد ذلك ويخبرنا البابا ديونيسيوس أن بعض القارين الى الصحراء الشرقية فضلوا البقاء بها بعد انتهاء الاضطهادات .

(٥) العامل الاقتصادى :

لقد ساءت الأحوال الاقتصادية فى مصر خلال القرن الثالث الميلادى ، وعمت الفوضى أنحاء البلاد . ولم تكن هناك قوانين أو ضوابط فى القرى او المدن المصرية . وغدت الضرائب عبئا ثقيلا زاد ثقلا ، قسوة جامعيها الذين كانوا يختارون من وجهاء المدن أو أنحاء الامبراطورية الأخرى . وقد سلك هؤلاء طرقا وحشية فى جباتها ، فمن عجز عن دفعها كان يجلد ويسجن ويباع أو ناله عبيدا . ولقد دفعت هذه الحالة عددا كبيرا من الفلاحين وصغار الحرفيين الى ترك أراضيهم والتنازل عنها لكبار الملاك من الأجانب . كما فضلوا ترك بيوتهم وأراضيهم وأولادهم ليحيوا حياة اللصوص ، أو ليتركوا العالم بما فيه الى حياة الرهبنة

santamariaegypt.org

التى توفر لهم الأمن رغم مافيها من شظف العيش وخشونته .

+ على أنه يجب الانتباه جيدا الى أن العاملين السياسى والاقتصادى كانا عاملين ثانويين شجعا على ترك العالم ، لكنهما لم يكونوا بحال من الأحوال من العوامل الرئيسية لأنه لو كان الخوف من الاضطهاد الدينى مثلا هو العامل الأول والدافع الأكبر لترك العالم بقصد الرهبنة ، لعاد جميع هؤلاء الفارين من وجه الاضطهاد الى العالم ثانية بعد زواله فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى ، وذلك بعد انتهاء موجات الاضطهاد بصدور مرسوم ميلان الذى أصدره الملك قسطنطين سنة ٣١٣م باعتبار المسيحية ديانة معترف بها فى أنحاء الامبراطورية الى جانب الديانات الأخرى . لكن العكس هو الصحيح . فان القرن الرابع الذى شهدت أوائله نهاية الاضطهادات الدموية كان هو العصر الذهبى للرهبنة المسيحية .

أنظمة الرهبنة

اجتازت الرهبنة عدة مراحل حتى وصلت أخيرا الى وضعها الذى نراه حاليا . بدأت بنظام العزلة ثم مالبث أن تطوّر الى نظام الجماعات الرهبانية وأخيرا الى نظام الشركة الرهبانية .

أولا : نظام العزلة

اتفق عامة الكتاب فى تاريخ الرهبنة على أن أصول النظام الرهبانى المسيحى ظهر أول ماظهر فى مصر المسيحية خلال القرون الاولى لانتشارها فى العالم القديم كما اتفقوا على أن مؤسس الرهبنة هو المصرى انطونيوس St. Antony ، فى النصف الثانى من القرن الثالث المسيحى . ومع ذيوع تلك النظرية فاننا نقول ان الحركة النسكية المسيحية بدأت فى مصر قبل أنطونيوس بزمان طويل ، وهى فى ذلك قد تمشت مع اقبال الناس على اعتناق المسيحية بكثرة فى أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثانى الميلاديين ، كما أثبتت ذلك

santamariaegypt.org

الكتب البردية القبطية الحديثة وغيرها . والواقع انه صاحب دخول المسيحية الى مصر وحمل الروح القدس وتأثير كتابات العهد الجديد — ظهور حاسة روحية نسكية عالية بين أتباعه صرحه فيها تقليب الاحساسات الروحية على النزعات الجسدية . وكان نتيجة ذلك ان اندفعت نماذج فردية وجماعية لتقرير حياة نموذجية ، وعاشوا على مستوى الفرد أو الجماعة — في عزلة على أطراف المدن أو القرى . ولكن لم يكن هناك منهج روحي معين يعيش عليه هؤلاء .

وعلى الرغم من قلة المصادر التي تمدنا بمعلومات كثيرة عن الدير المسيحي المبكر في مصر فاننا نجد بعض الأمثلة لحياة الرهبنة ترجع الى القرن الثاني الميلادي :

المثل الأول : ماجاء في مجموعة حياة القديسين Acta sanctorum التي بدأ يجمعها الاخوة الرهبان البولنديون Pollandistes نسبة الى مؤسسها J. Bollandus سنة ١٦٤٣ بمدينة انتورب ببلجيكا تحت يوم ١٤ ابريل أنه في عهد الامبراطور انطونيوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨ — ١٦١م) نزل أحد أثرياء الاسكندرية ويدعى فرنتونيوس Frontonius حوالي سنة ١٥٠ م الى برية نتريا وفي صحبته سبعون مسيحيا ليعيشوا عيشة الرهبان زاهدين في الحياة الدنيا وراغبين في التقشف والعزلة ، على أن هذه الجماعة تذمرت على قائدها لنقص الغذاء وقلة المؤن التي تعوّد أحد أغنياء الاسكندرية أن يمتع بها اليهم فتفرقوا وتركوه لمصيره بموته . ويعلّق العالمة والس بدج Wallis Budge على ذلك بأن تلك الحملة الرهبانية المنظمة لم تكن بطبيعة الحال الا واحدة من حملات متعددة كانت تحدث تباعا دون أن تسجلها الكتب المعاصرة وذلك لحدوثها في الخفاء بغير علنية لأن المسيحية أساسها انكار الذات ...

والمثل الثاني : هو القديس الأنبا بولا السائح الذي يمثل نظام العزلة الرهبانية في أجلى صورها بل يعتبر أحد أقطابها العظام . وقد كتب لنا سيرته القديس جيروم سنة ٣٧٤م مؤكدا أنه أول المتوحدين في مصر .

santamariaegypt.org

ولد الأنبا بولا بمدينة طيبة حوالى سنة ٢٢٥ م تقريبا (يقول جيروم أن الانبا بولا
فى اضطهاد ديسيوس سنة ٢٥٠ كان له من العمر ١٦ سنة) من أبوين موسرين وتيتم وهو فى
سن السادسة عشرة فتولى الوصاية عليه زوج أخته الذى كان يتحين الفرص للتنكيل به لنهب
ثروته . تثقف بمثقافة عصره المزدوجة أى الاغريقية والمصرية كما درس أصول الدين المسيحى
الذى تعلق به . ولما أحس أن زوج أخته أضمر تسليمه لايدى الولاة أبان احدى موجات
الاضطهاد التى كانت تجتاح المسيحيين فى العصر الرومانى (اضطهاد ديسيوس) قرر
ان يهجر العالم ويتوجه الى الصحراء . ووصل فى تجواله الى المنطقة التى يقوم فيها
الدير الذى يحمل اسمه حتى اليوم عند البحر الأحمر . عاش فى هذه المنزلة لايرى انسانا
ولا يراه انسان يستقى من عين ماء ويأكل من ثمر النخيل ويكتسى برداء من ليفه المجدول . وظل
الانبا بولا فى توحده المطلق مختفياً عن العالم حتى ٣٤١ م حين تم لقاؤه بالأنبا انطونيوس
الذى كان بتدبير الإلهى . فلقد خالج الظن انطونيوس أنه أول من سلك طريق الرهبنة وانفرد
للنسك فى البرية لكن الله أوحى اليه بأن فى البرية رجلا أقدم منه زمانا وأفضل قداسة
فمضى للبحث عنه مسترشدا بالله حتى اهتدى الى حيث كان يوجد الانبا بولا . تبارك
القديسان من بعضهما وأخذ الانبا بولا يسرد تاريخ حياته وما كاد ينتهى الأنبا بولا من
سرده حتى أتاه غراب بخبزة كاملة . وعلق الأنبا بولا على ذلك بقوله أنه منذ ستين سنة
وغراب يأتيه كل يوم بنصف خبزة واليوم أتى بخبزة كاملة . ثم قال بولا لأنطونيوس لقد أرسلك
الله لتوارينى التراب فأطلب اليك أن تحضر الرداء الذى وهبك اياه البابا اثناسيوس لتكفينى
به . فأسرع أنطونيوس لاحضار الرداء وقبل أن يصل عائدا الى مغارة الأنبا بولا أبصر جوقة
من الملائكة ترتل حاملة روح هذا البار . ولما دخل المغارة وجده قائماً/على يصلى ركبتيه ورأسه
منحنيا ويديه مرتفعتين فظن أنه حى يصلى فجثا بقربه ليشاركه الصلاة الا أنه أدرك بعد
ذلك أنه نازع الحياة فخلع عنه الثوب الليف واحتفظ به لنفسه حيث كان يلبسه فى الأعياد
وألبسه عوضا عنه الرداء الذى أحضره له ... ويقال أن الرب دبر أسدين حفرا قبره اذ لم
يكن لأنطونيوس شىء يحفر به . وقد انتقل الأنبا بولا من العالم شيخا شبعان نسكا

santamariaegypt.org

بعد أن قضى فى الوحدة الكاملة المذهلة أكثر من ٩٠ عاما متواصلة • ومن الكتّاب القدامى الذين دونوا لنا حياته بلاديوس صاحب بستان الرهبان والقديس جيروم •

وقد سلك القديس أنطونيوس نفسه نظام العزلة فى بداية حياته النسكية وفى مقتبلها قبل أن يتجمع حوله المعجبون بطريقه • على أنه يلاحظ أن حياة التوحد — نتيجة ارتباطها بحياة كبار النساك — ظلت تستهوى وتجذب كثيرين فى القرنين الثالث والرابع • ومن أمثلة هؤلاء — ممن ذكرهم بلاديوس — يوحنا الأسيوطى الذى اقتنى موهبة النبوة وعاش حبيسا فى مغارة بجبل أسيوط وكان يقتات على بعض الخضروات التى كان يتناولها من طاقة فى مغارته • ومن أمثلتهم ايليا الذى توحد فى صحراء انطنوى الموحشة لمدة ٧٠ عاما وسليمان الذى توحد فى نفس البرية لمدة ٥٠ عاما فى مغارة • والأب شاريمون Chaeremon والأب يوسف اللذان توحدا بجوار بنفسيس Panephysis بمنطقة المنزلة • واللذان التقى بهما يوحنا كسيان أما فى الصحراء الشرقية — المعروفة باسم صحراء بورنيرى أو صحراء كالاموس ... Calamus والتى تبعد عن الصعران نحو سبعة أو ثمانية أيام • فقد سكنها متوحدون منهم أرخيبوس .. Archebius وموسى وبولس وغيرهم ممن التقى بهم يوحنا كسيان وذكرهم فى كتاباته •

ثانيا : نظام الجماعات الرهبانية

وقد تأسس هذا النسق من الحياة الرهبانية على يدى القديس أنطونيوس • ويمكن القول بأن هذا الدور هو الدور الحق من أدوار تاريخ الرهبنة المصرية بشكلها المألوف وهو الذى يعرف باسم الرهبنة الأنطونية • ويعتبر ماسبقه مقدمات مرتجلة مهدت لهذا النظام الجديد ولاشك أن هذا التطور كان أمرا طبيعيا ازاء الظروف القاسية التى كانت تكتنف حياة المتوحدين الذين عمدوا انتزاع انفسهم انتزاعا كاملا من كل الصلات البشرية • ولم يقيموا أى وزن للأخطار والمخاوف التى كانت تتهددهم سواء من جهة الحيوانات الضارية أو قطاع الطرق من أنصاف المتوحشين الذين امتلأت بهم البرارى والجبال وقتذاك • أضف الى هذا الأزمات الروحية والنفسية التى كان يتعرض لها هؤلاء المتوحدون • كان طبيعيا اذن أن يفكر هؤلاء فى

santamariaegypt.org

وسيلة للتخفيف من عزلتهم بعض الشيء ، فأخذوا في تركيز سكونهم في مناطق معينة حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين ليتتلمذوا عليهم . كانوا يتجمعون حول أب روحاني اشتهر بالقداسة والعلم كان كل منهم يحيا حياة توحّد في مغارة أو صومعة او قلاية دون أن يقطع عليه أحد وحدته ، ولذا فان الراهب يسمى باليونانية (μόνος-ος) من الكلمة اليونانية Monos ومعناها alone, Solitary فكلمة راهب من جهة اشتقاقها وأصلها اللغوي تعبّر عن انسان يحيا بمفرده أو بعيدا عن آخرين . أما الكلمة العربية راهب وهي اسم فاعل من الفعل رهب يرهب فهو راهب أي خائف الله فهي لاتعبر تعبيرا دقيقا عن طبيعة حياة الراهب وفكرة الرهبنة أساسا كانت مساكن هؤلاء الرهبان متقاربة الى حد ما . وبذا كانوا يتغلبون على الصعوبات المادية التي كانت تواجههم . كما كان هذا التقارب يسهّل عليهم الاتصال بأبيهم الروحي ليشد أزرهم ويحسن توجيههم ويعينهم للتغلب في حروبهم الروحية . ووسط كل جماعة رهبان كانت تبنى كنيسة يتوجّه اليها الرهبان عند غروب شمس السبت حيث يقضون الليل في التسابيح والاسترشاد بالآباء الشيوخ عن طريق تقديم الأسئلة اليهم ويحضرون القداس الالهي في فجر الأحد ثم يعود كل منهم الى قلايته وجدير بالذكر أنه لم تكن هناك قواعد مكتوبة يسير عليها الرهبان المتوحدون في هذا النظام كما سنرى في قوانين باخوميوس . لكن كانت هناك تقاليد وعادات مرعية ألفوها أو استوحوها من آبائهم الروحيين وجعلوها أساسا لاجتهادهم .

أما أهم الجماعات الرهبانية فظهرت في المناطق الاتيه :

١ ـ الصحراء الشرقية : حيث أسس الأنبا أنطونيوس أول جماعة رهبانية ولذا دعي " أب الرهبان " وجوهر الرهبنة الأنطونية كان يتلخص على المنزلة الفردية التامة ، واغراق الراهب في شروب الزهد والتقشف والصوم . وربما كانت حياة القديس أنطونيوس ذاتها من أبلغ المثل لهذا النوع من الرهبنة . وقد كتب عنها في تفصيل القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية العشرون الذي تتلمذ له بعض الوقت .

santamariaegypt.org

حياة القديس أنطونيوس : ولد الآنبا أنطونيوس سنة ٢٥١ م ببلدة قمن العروس بمركز الواسطى محافظة بنى سويف (أنظر حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس الرسولى) من أبوين مسيحيين . وكان والده من ذوى اليسار يملك مزرعة تبلغ مساحتها حوالى ٣٠٠ فدانا . تعلم عن والديه قواعد الدين المسيحى . ويبدو أنه لم يأخذ بقسط وافر من التعليم الدنيوى العام . ومن المقطوع به أنه لم يتصل بالثقافة اليونانية على الاطلاق فظل مصريا صميما فى طبعه وتفكيره وفى سن العشرين تقريبا فقد والديه تاركين له مع الثروة العريضة أختا تصغره يقوم على تربيتها غير أن أنطونيوس الذى استهواه الدين المسيحى بروحانيته ومبادئه كان كثير التردد على الكنيسة . دخل الكنيسة ذات مرة ليصلى فسمع الشماس يتلو فصل الانجيل الذى يقول فيه السيد المسيح " أن أردت ان تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء " (مت ١٩ : ٢١) . أحس أنطونيوس أن الكلام موجه اليه فباع أملاكه ووزعها على المحتاجين وأبقى جزءا قليلا لأخته الصغيرة التى أودعها بيتا من بيوت العذارى . وفى مرة أخرى سمع قول الانجيل " لاتهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفى اليوم شره " (مت ٦ : ٣٤) . فانعزل خارج القرية مسترشدا باحدى المتعبدين الذى حثه على ضبط نفسه حتى لايستحوذ عليه القلق من جهة أسرته أو أخته ولا يرتبط بأمور هذه الحياة الوقتية ، بل يشغل نفسه بالأصوام والصلوات وقراءة الكتاب المقدس بلا انقطاع . وبعد قليل أحس أن المكان الذى اختاره لخلوته مع الله قريب من المدينة فتركه وعبر نهر النيل الى الصحراء الشرقية وكان له من العمر ٣٥ عاما . لكنه توقف عند قلعة قديمة قريبة من النيل فى منطقة يكتنفها الهدوء هى منطقة بسبير Pispir (مكانها حاليا دير الميمون فى منتصف المسافة بين الطفح وبنى سويف تقريبا) فى هذه المنطقة عاش أنطونيوس مدة عشرين عاما لكنه مالبث بعدها أن توغل فى الصحراء وظل يتنقل من مكان الى مكان حتى انتهى به المطاف الى المكان الذى بنى فيه الدير الذى مازال يحمل اسمه حتى اليوم قرب البحر الاحمر . ولم تكن حياة هذا الصعلوك فى النسك سهلة هينة لأن الشيطان حاربه بكل أنواع المحاربات الممكنة لكنه فى كل ذلك ظل ثابتا كالطود . كان الشيطان يبدو له حينا فى صورة امرأة جميلة

santamariaegypt.org

وحينا في صورة وحش كاسر وحينا آخر في شكل هو مزيج من الانسان والحيوان . وفي احدى المرات أنهك القتال قوى أنطونيوس فلم يستطع أن يقف ولا حتى أن يجلس ، بل ظل مستلقيا على الأرض في شبه اغماء بينما انتهز عدو الخير هذه الفرصة فأخذ يهاجمه في قسوة . لكن هذا الرجل كان متسلحا بقوة بددت قوى الشر من أمامه حتى في الوقت الذي بدا فيه خائرا . فيقول مخاطبا قوى الشر " انني هنا — أنا أنطونيوس — ولن أنحني تحت ضرباتك مهما قسوت فيها . لأنني لن أسمح لشيء في الوجود أن يفصلني عن محبة المسيح ربي والهي " .

على أن الأنبا أنطونيوس لم ينعم طويلا بالخلوة التي تاقت نفسه اليها لأن صيته ذاع فتقاطر الناس عليه من كل أنحاء مصر بل ومن أنحاء مختلفة من العالم ، بعد أن وهبه الله موهبة الشفاء وصنع المعجزات .

وفي مدة اقامة انطونيوس في بسبير Pispir تجمع حوله كثيرون من محبي الحياة النسكية والتأملية ممن أعجبوا بحياة أنطونيوس وجهاده . وعلى الرغم من سكنى هؤلاء الأخوة حول أنطونيوس الا أنه ظل معزولا عنهم فترة طويلة يحيا في عزلته الخاصة لكنه أخيرا رضخ لتوسلاتهم وقبل رعايتهم ، ويقال أن ذلك كان حوالى سنة ٣٠٥ م ولاشك أن لهذا التاريخ أهمية خاصة فهو تاريخ أول منشأة رهبانية في مصر بل في العالم كله .

وبعد أن قضى في العبادة والوحدة نحو خمس وثمانين سنة انتقل الى المسيح الذي أحبه سنة ٣٥٦ م وله من العمر ١٠٥ سنة . وخلال الخمسة وثمانين سنة لم يترك أنطونيوس وحدته الا مرتين حين أحس أن المؤمنين أخوته يتعرضون لمحنتين ، كانت المرة الأولى سنة ٣١١ م في زمان الاضطهاد الذي أثاره مكسيميانوس ضد المسيحيين . فقد قصد الاسكندرية لأنه اشتهى أن ينال اكليل الشهادة ، وان لم يسمح الله بذلك فانه يقبت أخوته . وفي الاسكندرية كان يتردد على السجون ليزور المقيدين فيها وكان يشجعهم

santamariaegypt.org

ويتوبهم • وعند ما كان يأتي الجند لنقلهم الى مكان الاعدام كان يصحبهم منشدا أناشيد التسبيح مرددا الأقوال الالهية • وعلى الرغم من أن القديس كان يظهر نفسه معلنا ايمانه لكن الله حفظه ولم يسمح أن يستشهد من ألوف المسيحيين الذين استشهدوا • وفي أثناء اقامته بالاسكندرية كان ضيفا على ديديموس الضرير الذي كان مديرا للكلية اللاهوتية وقتذاك • وتوطدت أواصر المحبة والصداقة بينهما حتى أن الأنبا أنطونيوس قال له ذات مرة • لا تكتئبيا صديقي ديديموس لأنك محروم من العينين اللتين تشترك فيهما مع الحشرات • بل تهلل لأن الله فتح لك العين الباطنة التي تشارك بها الملائكة في رؤية الله " • وقد عاد أنطونيوس الى خلوته بعد أن انتهى هذا الاضطهاد • أما المحنة الثانية التي ترك فيها خلوته فكانت عند استفحال البدعة الأريوسية • هبط من الصحراء الشرقية الى المدن المصرية سنتي ٣٣٧ و ٣٣٨ لكي يساعد في نضال أثناسيوس ضد الأريوسيين • ويبدو أن هناك سببا آخر ملحا اذ أن الاريوسيين ادعوا كذبا أن أنطونيوس على ايمانهم ومعتقدهم • بل انه اتصل بالامبراطور قسطنطيوس كاتبا اليه يطلب رجوع البابا أثناسيوس من منفاه في تريف • ولا شك ان شخصيته كانت من أكبر الدعامات في رد المصريين الى عقيدة الايمان السليم • وبعد أن قام بدوره عاد الى قلايته في داخل الصحراء •

أما عن شخصيته فقد أطال في وصفها البابا أثناسيوس في كتابه " حياة أنطونيوس " وكتب ديديموس يقول " كان ذا عقلية وقادة • حكيما يدرك حقيقة الناس بالفراسة بحيث كان الذين يأتون اليه يمتلئون دهشة اذ يجدون أنه ادركهم على حقيقتهم رغم عزلته وابتعاده عن الناس • وعندما كان حديثه معهما بطيء سماويا بحيث كان سامعوه يشعرون بنبضة قلبه ولا يحسدونه على ما وصل اليه من كمال روحي حبّب فيه النفوس وقرّبها اليه القلوب • كذلك كان الأنبا أنطونيوس يمتاز بالصبر والجلد في المناقشة فيصغي لكل ما يقال له ويجيب بكل تؤدة واتزان فلا عجب اذا قيل أن الله قد أقامه طبيبا روحيا لأبناء وطنه ولجميع الملتفين حوله " •

santamariaegypt.org

ولم يقتصر أثر الأنبا أنطونيوس على مصر وحدها بل تعداها الى بقاع أخرى من العالم القديم فلم تنقض ثلاثون سنة على انتقاله حتى عثر فى تريف Tréves (على الحدود الفرنسية البلجيكية) على نسخة من سيرته بقلم اثناسيوس، وقد تجمع فى المنزل الصغير الذى وجدت فيه هذه النسخة الثمينة بعض النساك الذين اتخذوا حياة هذا الناسك نموذجا لحياتهم النسكية . وحدث فى اواخر صيف تلك السنة عينها أن أحرزت هذه السيرة انتصارا عظيما حينما كانت سببا فى اجتذاب أغسطينوس من حياة الاستهتار والخطية الى حياة النسك والقداسة . ومع أن أغسطينوس لم يعش عيشة أنطونيوس الصحراوية الا أنه اقتفى أثره فى السعى الى اخضاع الارادة الانسانية للارادة الالهية ، متخذا شعاره ما قاله أنطونيوس عن الامكانيات الانسانية حيث قال " لا يقوم من انسان أن يبلوغ الكمال بعيد المنال أو غريب عن الطبيعة البشرية . فالناس يركبون البحار ليتمكنوا من دراسة الفلسفة اليونانية . أما مدينة الله فهى داخل القلب البشرى . والصلاح الذى يطلبه الله كائن داخل كل فرد منا ، ولا يتطلب الا أن نخضع ارادتنا للارادة الالهية " واذا كان الكتاب الذى وضعه البابا أثناسيوس عن أنطونيوس له هذا الأثر العظيم فكم تكون حياة هذا الناسك نفسها ؟

وكان نظام حياة الأنبا أنطونيوس بسيطا على الرغم من اغراقه فى التقشف . فقد كان يتناول القليل من الخبز المجفف مع الملح ولا يشرب سوى الماء . وكان يصوم حتى الغروب وأحيانا كان يطوى ثلاثة أيام أو أربعة أيام صائما . وأحيانا كان صومه يمتد الى فترة أطول وكان يقضى لياليه ساهرا عاملا بيديه . فاذا نام كان نومه على حصير من سقف النخيل وكان رداؤه عبارة عن فروة غير مدبوغة يلبسها مقلوبة . ولم يكن يتدثر بغطاء فى نومه الا بعد أن شاخ .

santamariaegypt.org

لم يضع الأنبا أنطونيوس نظاما للحياة النسكية • ولم يطالب النساك بأكثر من التقشف والصلاة والعمل اليدوى اقتداء بحياة المسيح وبولس الرسول وعملا بارشاد الملاك الذى ألبسه الاسكيم وأوصاه هذه الوصية حتى ينجو من الملل • وقد حدّد الأنبا انطونيوس الساعات التى تقام فيها الصلوات وتنحصر فى تلاوة المزامير •

لاغرو اذن أن تجتذب شخصيته أعدادا كبيرة من الراغبين فى الحياة النسكية الذين تتلمذوا على يديه ، وأصبح هو فى نظرهم المثل الأعلى للحياة الكاملة ، يقتدون به وينسجون على منواله • ولكن النظام الأنطونى ظل فى أساسه نظاما فرديا أساسه العزلة والتقشف والصوم • وكان الاخوة من تلاميذ أنطونيوس يتنافسون فى هذا الميدان • ومن تتلمذوا على يدى هذا الناسك العظيم ايلاريون Hilarion مؤسس الرهبنة فى فلسطين ومقاريوس المصرى (الكبير) أب الاسقيط فيما بعد ، وبولس البسيط •

(٢) البرية الشرقية أو المنطقة المحيطة بوادى النطرون :

وادى النطرون عبارة عن واد مستطيل يأتى فى الشمال الشرقى للصحراء الغربية وتشتهر سلسلة التلال التى تطوقه من الشمال باسم صحراء نتريا أو جبل نتريا • وقد تركزت الجماعات الرهبانية فى هذا الوادى فى ثلاث مناطق رئيسية هى نتريا والقلالى وشيهيت وكان لهذه التجمعات الرهبانية أثرها الكبير وأهميتها فى تاريخ الكنيسة القبطية • تقرب هذه المنطقة من الاسكندرية عاصمة البلاد ومقر الكرسى البطريركى آنذاك جعلها قبلة الراغبين فى الحياة الرهبانية ، سواء كانوا مصريين أو وافدين الى مصر من الخارج ، كما جعل رهبانها على صلة بالاحوال الدينية فى كنيسة الاسكندرية ابّان فترة الجدل العقيدى الذى احتدم فى القرنين الرابع والخامس ، ومكنهم من القيام بدور فى تلك المنازعات • بل أن بطاركة الاسكندرية لجأوا الى الجماعات الرهبانية بوادى النطرون ابّان تلك المنازعات العقيدية وما صحبها من اضطهادات من جانب ملوك الدولة البيزنطية • أضف الى هذا الشهرة المقدسة التى نالها وادى النطرون لاسيما بعد أن انتشرت قصة مرور العائلة المقدسة

santamariaegypt.org

به أثناء ذودها الى مصر ، ومباركة السيد المسيح وهو طفل له . لهذه العوامل كلها مجتمعة حرص البابا الاقباطي ايلة العصور الوسطى على دير البرون بدير أنبا مقار بوادي النطرون ، بل أن رهبان الاسقيط كانوا لا يحترفون برسامة البابا الاسكندري الا اذا زار دير القديس مقاريوس مباشرة عقب رسامته وأحتفل به فيه بطقوس خاصة ... ونحصرها الآن للتجمعات الرهبانية الثلاثة :

(١) جبل نتريا أو البرنوج ΤΣΕΡΝΟΥΤ : ويقصد به الصحراء الواسعة حيث تنتشر تلال قليلة الارتفاع الى الجنوب الغربي من اقليم هوموبوليس باركا (دمنهور الحالية) بنحو ١٤ كيلومترا ، قرب قرية البرنوجي تبع مركز دمنهور قرب حوش عيسى . وتمتد صحراء نتريا بتلالها الحافة الشمالية والشمالية الشرقية لوادي النطرون . وتسمية " نتريا " هي التسمية اليونانية واللاتينية ، أما البرنوج فهي التسمية القبطية وتحرف هذه التسمية (نتريا) الى ميناء كان يحمل هذا الاسم وتقع على القنال الذي كان يربط فرع النيل الكانوبي وبحيرة مريوط وكان يشحن منها النطرون سواء المستخرج منها او المستجلب من وادي النطرون الى الاسكندرية ومنها الى الخارج . وكانت هذه المدينة هي المدخل الى الصحراء المتاخمة التي حملت اسم نتريا أيضا . وكان الرحالة القدامى الوافدون من الخارج يصلون اليها من الاسكندرية بعد عبور بحيرة مريوط ويصل بعضهم عن طريق فرع من فروع النيل القديمة كان يصب في بحيرة مريوط ويعرف الآن باسم البحر الفارغ . وكان جبل نتريا كله أقرب الى الريف منه الى عمق الصحراء ، ومن كان يرغب في عزلة أكثر كان عليه أن يرحل جنوبا الى منطقة القلالي التي كانت تبعد عن نتريا مسافة عشرة أميال . وعلى ذلك فقد كانت منطقة جبل نتريا تصلح كبداية سهلة للحياة النسكية نظرا لوقوعها على حافة الصحراء وقربها من الريف الذي كان يعتمد عليه الرهبان للعمل في حقوله في مواسم الحصاد فضلا عن قضاء حاجاتهم وتصريف عمل أيديهم .

وقد امتلأت نتريا بالنساك المتوحدين في القرن الرابع . وقد ذكر بالاديوس أنه سكنها ٥٠ راهب ، وظلت تزدهر الحياة الرهبانية فيها ، لكن شيئا فشيئا أخذ نجمها يأفل

santamariaegypt.org

ويمكن القول أن شمسها غربت حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى ، نتيجة نزوح الكثير من متوحديها الى مناطق القلالى الاكثر هدوءا ، ولتحررهم لضغوط واضطهادات من أعداء الأرثوذكسية ابان حركات الجدل العقيدى التى احتدمت فى القرنين الرابع والخامس .

تمتعت نتريا بشهرة واسعة بسبب من سكنها من المتوحدين الذين كانوا عالقة فى السلك الى جانب شهرتهم فى العلوم اللاهوتية والدينية ، الامر الذى اثار عليهم حفيظة السراطقة . وقد زار البابا أثناسيوس الرسولى نتريا وعاش فيها بعض الوقت مدة نفيه الثالث (٣٥٦ ـ ٣٦٦) . وقد أشار الى القديس آمون مؤسس الرهبنة فى نتريا فى كتابه حياة أنطونيوس مظهرا اعجابه الشديد بقداسته ونسكه . وفى نتريا عاش القديس كيرلس الكبير عمود الدين بطريرك الاسكندرية ٢٤ وتلقن الحكمة والمعرفة الروحانية على يد سرابيون الكبير الزائع الصيت من مصاصين القديس أنطونيوس ورفيق آمون . وممن زاروها نتيجة شهرة نساكها ـ المؤرخ روفينوس الاكويلى ٣٧٣ م ومعه القديسة ميلانيا الأسبانية والقديس جيروم ومعه بولا الايطالية ٣٨٥م وبالاديوس كاتب بستان الرهبان فى التسعينات من القرن الرابع .

أما عن نساك نتريا العمالقة فكثيرون يأتى فى مقدمتهم القديس آمون مؤسس رهبنتها والأنبا ثيودوروس والأنبا أور وكانا يعيشان معا عيشة مشتركة والأنبا ايسيذوروس الذى زار الأنبا أنطونيوس الكبير ورافق البابا أثناسيوس الى روما سنة ٣٤١ م ، وأنبا نثنائيل وأنبا بيشور (بيهور) الذى تتلمذ أولا للأنبا أنطونيوس قبل ان يسكن فى نتريا ، والأنبا بامو Ποιμήν الذى يذكر فى المراجع الافرنجية باسم بامبو وفى العربية باسم بموا والذى خلف الأنبا آمون فى تدبير المتوحدين والأخوة فى كل نتريا .

القديس آمـــــون :

ولد حوالى سنة ٢٧٥ فى بلدة قريبة من الاسكندرية . توفى والده وهو فى سن الثانية

santamariaegypt.org

والعشرين وأرغمه عمه على الزواج على غير ارادته ، عاش ١٨ سنة مع زوجته في بتولية كاملة بزاها بعد أن أقنعها بسمو حياة البتولية ، ثم انطلق الى نتريا لكنه بعد أن تأثرت حولـه جماعات الرهبان فضّل الانفراد ، فانتقل جنوبا الى الصحراء الداخلة فيما عرف باسم سيليا أو منطقة القلالي وقيل ان هذا الأمر قد تم بناء على مشورة الأنبا أنطونيوس الذي أتى الى جبل نتريا لزيارة الأنبا آمون (بعد أن زار آمون أنطونيوس أكثر من زيارة) لكن سرعان ما انتشر بهـا الرهبان الذين أثروا حياة الوحدة والهدوء .

تنيح حوالي سنة ٣٢٧ م بعد أن أمضى ٦٢ سنة في حياة الصحراء ، وتعيد الكنيسة بتذكار نياحته يوم ٢٢ بشنس وقد وهبه الربنعمة عمل المعجزات ، لذا كان محل احترام الجميع حتى الأنبا أنطونيوس نفسه الذي شهد لاستقامة روحه وفضائله . ومن القدامى الذين سجلوا لنا سيرة أمون بالديوس في كتابه بستان الرهبان وروفينوس في كتابه تاريخ الرهبنة .

(٢) منطقة القلالي : وتعرف باليونانية باسم " كليا " (من الكلمة اليونانية ΚΕΛΛΙΑ وهي غرفة الراهب أو صومعته) وتعرف باللاتينية باسم " سيليا " Cellia وبالقبطية ⲘⲀⲢⲒ (ومعناها المساكن او القلالي) وفي المراجع العربية (المونا " Mond التي يظن أنها تحريف لاصل لفظ قبطي ... ومهما يكن الأمر فقد أطلق عليها هذا الاسم لانتشار القلالي (جمع قلاية وهي تحريف وتحريب للكلمة اليونانية ΚΕΛΛΙΑ) المنفردة بها ، والتي سكنها المتوحدون ... ويذكر التاريخ أن القديس أنطونيوس هو الذي اختار منطقة القلالي في زيارة له الى نتريا كطالب آمون لتكون خاصة بالمتوحدين الذين افتقدوا حياة السكون في نتريا وقد عمرت هذه البرية بكبار النساك المتوحدين ، ويذكر بالديوس أنه كان بها ٦٠٠ راهب بينما يذكر الدؤن روفينوس أنه في سنة ٣٧٣ م كان يبلغ عدد رهبانها مضافا اليه رهبان نتريا ٣٠٠٠ ، ما لبثان وصل الى ٥٠٠٠ أواخر القرن الرابع . ومن أشهر نساك منطقة القلالي القديسة روس القلالي ومقاريوس الاسكندري .

santamariaegypt.org

القديس مقاريوس الاسكندري : على الرغم من الشهرة الواسعة التي أحرزها هذا القديس في مجال النسك ، فاننا نجهل الكثير من حياته قبل الرهبنة بل وفي الرهبنة ذاتها كل ما نعرفه عنه أنه نشأ بالاسكندرية وثنيا وكان يعمل خبازا الى جانب بيع الفواكه المجففة والنبيذ . تعمّد في سن الاربعين وقيل أنه زار القديس أنطونيوس بالصحراء الشرقية حوالي سنة ٣٢٥ م . ترهب في نتريا وتتلمذ على يدي القديس باموا (٣٤٦ م) وشغل نشاطه وذكائه وحبه للنسك خير نموذج رائع للتعلم وامتصاص الفضائل ، وأخذ يباري كبار النساك في نسكهم وفضائلهم ، وعرف عنه شدة صرامته النسكية . رسم قسا سنة ٣٣٥ م وخلف أباه الروحي القديس باموا في رياسة جبل نتريا . ولاشتياقه لحياة الوحدة نزح من نتريا الى القلالي سنة ٣٧٢ م وصار مدبرا لرهبانها ورئيسا عليهم وقد بلغ عددهم ٦٠٠ راهب . عرف عنه حب التنقل والحياة بين سائر الجماعات الرهبانية ، ولعل ذلك راجع الى رغبته الملحة في تعلم الفضيلة لذا نجد كان كالنحلة النشيطة التي تنتقل من زهرة الى زهرة لتمتص رحيقها المختلف . لذا ذكر عنه انه كان له أربع قلالي أحدها في نتريا والثانية في القلالي والثالثة في الصحراء الليبية (الصحراء الداخلية) والرابعة في شيهيت حيث كان يتردد على القديس مقاريوس المصري (الكبير) مؤسس الحركة الرهبانية في شيهيت وفي سنوات قليلة أتقن الفضيلة والنمو الروحي وغدا بالحق راهبا عمّالا . زار دير الأنبا باخوم في طبانسين ، وكان يوافق الصوم الكبير وكان يصوم أسبوعا أسبوعا يطويه طيا ولا يأكل سوى ورقة كرنب واحدة كل يوم أحد . هذا فضلا عن سهره وشغله اليدوي وقوته على رجليه دون أن يحنيهما ، حتى نزح رهبان الدير الى أبيهم باخوم بعد أن أصابهم ضر النفس حينما أخذوا يقارنون بين جهادهم وجهاده . وقد منحه الله نعمة عمل المعجزات وشفاء الأمراض . وتتلمذ على يديه تلاميذ كثيرون . عرفت عنه البشاشة والترحاب بالزائرين والترفق بالمبتدئين في طريق الرهبنة وقد تنيح يوم ٦ بشنس سنة ٣٩٢ م وقد ناهز عمره المائة عام .

santamariaegypt.org

برية شيهيت أو الأسقيط :

" شيهيت" هي التسمية القبطية ⲥⲓϩⲏⲧ معناها ميزان القلوب ، بينما "أسقيط" هي التسمية اليونانية ، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية ⲁⲥⲕⲏⲧⲏⲥ أي منسك او مكان العبادة ، ومنها كلمة ⲁⲥⲕⲏⲧⲏⲥ أي ناسك . وتبعد عن منطقة القلالي بنحو ٥٠ كيلو مترا الى الجنوب والجنوب الشرقي . والقديس مقاريوس المصري (الكبير) هو المؤسس الأول للرهبنة في شيهيت ، وكان روادها الأوائل من متوحدي نتريا والقلالي من أمثال الأب أمون (الأب الروحي للقديسين بيشوي ويوحنا القصير) والأب ايسيذوروس من متوحدي نتريا وكاهن منطقة القلالي ، وكان هو أول كاهن في شيهيت والأب بيشوي الذي نزح بعد ذلك الى البرية الشرقية وسكن مغارة الأنبا أنطونيوس بعد نياحته . ونقدم هنا ملخصا لسيرة القديس مقاريوس الكبير .

القديس مقاريوس الكبير : ولد سنة ٣٠٠ في شنشور منوفية . أجبره أبوه على الزواج لكنه عاش مع زوجته في بتولية تامة . توفيت زوجته فوالده ثم والدته بالتتابع مما هيأ له فرصة الانطلاق لحياة التعبد التي كان يصبو إليها ... سكن أولا عند أطراف قريته بالصحراء المتاخمة لها على نحو ما فعل الأنبا أنطونيوس في بدء حياته النسكية . كان ذلك في سن الثلاثين ، وظل في هذا الموضع عشر سنوات ، رسم في نهايتها قسا بعد أن تكاثر عليه أهل قريته وخضوعا لأمر أسقف الاقليم وكان ذلك سنة ٣٤٠ في ذلك الموضع نالته اتهام كاذب من فتاة عذراء أخطأ معها شاب وحملت منه سفاحا ، فاتهمته أنه هو الذي أخطأ معها ناله جزء شديد وضرب مبرح . لكن أظهر براءته وقد استه بأن اعترفت الفتاة بكذبها وظلمها للقديس بعد أن تعسرت في الولادة وكادت تلفظ أنفاسها ، واذ شعر بأن أهل القرية خرجوا ليجتذروا له ويكرموه ، هرب الى الاسقيط حوالي سنة ٣٤٠ وكان على علم بهذه المنطقة حيث كان يتردد عليها في حياة والده مع قوافل التجارة التي كانت تجلب الملح .

santamariaegypt.org

زار الأنبا أنطونيوس في بدء توحده حوالي سنة ٢٤٢ م وكان على صلة بآباء نتريا والقلالي . نال شهرة واسعة في عالم النسك فهرع الى شيهيت وتتلمذ عليه كثيرون من محبي حياة الوحدة ، بعضهم من خاصة مصر من أمثال مكسيموس ودوماديوس . وقد بلغ عدد الرهبان الذين كان يرعاهم في الاسقيط نحو خمسة آلاف راهب .

وقد عاين أنبا مقار أربعة تجمعات رهبانية في شيهيت في مواضع أديرة البرموس وأنبا مقار والأنبا بيشوى وأنبا يوأنس القصير وكان هذا التجمع الأخير يبعد عن منطقة الأنبا بيشوى بنحو ٤ كيلو مترات في الاتجاه الجنوبي الشرقي .

ومن الشخصيات الناسكة الشهيرة التي تتلمذت للقديس مقاريوس وعاصرته مكسيموس ودوماديوس وأنبا يوأنس القصير وأنبا بيشوى وايسيذوروس القس كاهن شيهيت والأنبا بفنوتيوس الذي خلف أنبا مقار على رياسة الاسقيط والأنبا بيمين والأنبا موسى الأسود التائب والأنبا اشعياء الاسقيطي والأنبا سلوانس . وبعد جهاد كبير تنيح سنة ٣٩٠ .

(٣) صعيد مصر : واشتهرت فيه تجمعات رهبانية في المناطق الآتية :

أ — منطقة بسبير . Pispir في الصعيد الأوسط وهي المنطقة التي بدأ فيها القديس أنطونيوس حياته الرهبانية الأولى قبل أن يتوغل في الصحراء شرقا حتى وصل الى الجبال النائية المطلة على البحر الأحمر . وقد تجمع حوله في هذه المنطقة كثيرون تتلمذوا له وعاشوا تحت ارشاده الروحي .

ب — منطقة البهنسا — وهي التي كانت تعرف في العصر الروماني بلسم اوكسيرنكوس Oxyrinchus في الصعيد الأوسط أيضا غربي منطقة بني مزار الحالية ، وهي مصدر من مصادر الآثار القبطية الرومانية . ذكرها جيروم فيما كتب ، وقال أنها كانت تضج بآلاف من الرهبان . ويستمع الزائر الى أصوات العبادة والتراتيل الدينية وهي تملأ عنان السماء

santamariaegypt.org

آناء الليل وأطراف النهار . وذكر انه كان بها أسقف لرعاية عشرين ألف راهبة من العذارى وقد يكون العدد مبالغا فيه . لكنه على أي حال يلقي ضوءا عما بلغته الحركة الرهبانية من انتشار .

جـ — منطقة انطنوى Antinoe : وهي موضعها حاليا قرية الشيخ عبادة على ضفة النيل الشرقية قرب ملوى . زارها بلاديوس مابين سنتي ٤٠٦ ، ٤١٢ م وقضى بها أربعة أعوام كاملة يتنقل في أرجائها نظرا لكثرة من سكنها من النساء . وقد ذكر أنه وجد في حدود المدينة اثني عشر ديرا عامرا بالراهبات ، وخارجها ألف ومائتي راهب دائبين على العمل اليدوي لسد حاجاتهم المعيشية في زهد ونساك . وقد ذكر جيروم أنه كان يسكنها متوحد اسمه ايليا بلغ من العمر مائة وعشر سنوات قضى منها سبعين عاما متوحدا يقتات على ثلاثة دراهم من الخبز وثلاث زيتونات يوميا ، وقيل انه في بادئ كان يكتفي بأكلة واحدة في الاسبوع .

د — منطقة ليكوس Lycus : بالقرب من أسيوط الحالية ، وقد أمها كثيرون ممن ابتذبتهم العجائب التي كان يصنعها الناسك العظيم يوحنا المعروف بالتبايسي أو الأسيوطي والذي ولد سنة ٣٠٤ وسكن في جبل ليكوس سنة ٣٣٠ وأقام به الى نياحته سنة ٣٩٤ . وقد اشتهر بين معاصريه بموهبتي النبوة وصنع المعجزات حتى ذاع صيته خارج مصر ، وسعى الى طلب مشورته أناس من جميع الطبقات منهم الامبراطور ثيئودوسيوس الكبير . وقد أعجب منه بلاديوس أيما اعجاب ويدعوه نبي مصر . وقيل انه عاهد نفسه ألا يتناول مطبوخا على النار بما في ذلك الخبز ، ولذا فقد كان يقتات على الاعشاب .

هـ — منطقة شنوبسكيون Chenoboskion : أو شنيسيت Schenesit وهي منطقة قصر الصياد بمحافظة قنا . قامت بالقرب منها عدة جماعات رهبانية أشهرها الجماعة التي كانت تحت قيادة القديس باخوميوس — الأب المرشد الروحي للقديس باخوميوس أب الشركة — وكان صارما في حياته اقتصر طعامه على الخبز والملح ، وكان يقضي معظم ليله في الصلاة والتأمل وكان يحول نفسه بعمل يديه .

santamariaegypt.org

ثالثا : نظام الشركة الرهبانية

تعتبر الديرية الباخومية ثالث الأدوار الكبرى وخاتمتها فى تطور الحياة الرهبانية فى مصر والتى اصطلح على تسميتها بحياة الشركة فللمرة الاولى فى تاريخ الرهبنة المسيحية نسمع عن أديرة منظمة ذات وضعية ونظم ثابتة تخضع لها كل الجماعة كبيرها وصغيرها • وتنسب الحركة الديرية الى رائدها الأول وواضع أسسها وتنظيماتها الأبا باخوم الذى يسمونه — أب الشركة — الذى بنى أول دير فى العالم ولكى ندرك هذا النظام لابد لنا من استعراض حياة القديس باخوم وأيضا حياة الأنبا شنودة الذى يلقب برئيس المتوحدين الذى أسس مركزا ديريا كان له أهمية فى تاريخ الديرية والقومية المصرية •

الأنبا باخوم ABBA PAKHOM :

ولد باخوم فى بلدة شينوبسكيون Chenoboskion التى تعرف بالقبطية TA-SNEEHT Schenesit بمنطقة طيبة ويقال أن مكانها الحالى بلدة الصياد بمحافظة قنا • وذلك حوالى سنة ٢٩٠ م من أبوين وثنيين • لانعرف شيئا عن سنى حياته المبكرة • أنخرط فى سلك الجندية الرومانية وهو فى سن العشرين وتنفيذا لأوامر الامبراطور قسطنطين الكبير فى الحرب التى أثارها عليه خصمه مكسيميانوس سنة ٣١٠ م • ولكن هذه الحملة كانت قصيرة الأمد لانحدار مكسيميانوس وقتله فى نفس السنة بأمر قسطنطين وهكذا عاد باخوم الى الحياة المدنية • ومع أن انخراطه فى الجندية كانت قصيرة الا أن تأثيرها فى حياته كان بالغا اذ أنها أخرجته من الجو الوثنى الذى ألفه الى حيث أستطاع التعرف على المسيحيين ودينهم وعاداتهم • كما أن الحياة العسكرية لقنته حياة النظام والطاعة والعمل اليدوى والمعيشة الاجتماعية وهى من الامور التى غيرت بها قوانين الرهبانية فيما بعد حيث أن الكتيبة التى كان هو ضمن أفرادها عسكرت عند مدينة لاتوبوليس .. Latopolis " إسنا حاليا " فخرج سكانها الى الجند يطعمونهم ويقضون حاجاتهم فى دعة ودماثة فدهش باخوم من ذلك المسلك وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس الى إبداء العطف عليهم • فقيل له أنهم مسيحيون

santamariaegypt.org

ينفذون وصايا سيدهم . فما كاد يستريح من الجندية حتى عكف على دراسة هذا الدين الجديد وانتهى الأمر باعتناقه المسيحية سنة ٣١٤ م . وبذا كسبت المسيحية واحدا من أكبر زعمائها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أنه قرر تكريس نفسه وترك العالم ، فتتلمذ لشيخ ناسك يدعى بالمون [illegible] . حاول باخوم في بادئ الأمر أن يثني باخوم عن حياة النسك لانها حياة قاسية ، وأوضح له نظامه بأنه لا يتناول من الطعام إلا كسرة واحدة من الخبز الجاف مع قليل من الملح مرة واحدة يوميا مدة الصيف ومرة كل شتاء ، وأنه لا يستعمل الزيت ولا يشرب النبيذ ، وأنه يقضي نصف الليل او الليل كله في ترديد المزامير وقراءة الكتب المقدسة ونصحه أن يفكر طويلا قبل الإقدام على هذه المعيشة . لكن باخوم طلب من معلمه أن يلتمس له من المسيح لكي يهبه القوة . عندئذ قبله بالمون تلميذا وعاش معه بضع سنين قيل انها سبعة . ولما اطمأن بالمون الى الدرجة الروحية التي بلغها باخوم نصحه أن يعتزل في صومعة على أن لا يتلقى الا دفعة واحدة كل سنة . أطاع باخوم معلمه ومرشده وانصرف الى جهة مقفرة حيث قرية طابنسين [illegible] ومعناها نخلات ايزيس (لانها كانت في العصر الفرعوني مكرسة لهذه الالهة ، وهي بمنطقة دندرة شمال ظاو الحالية على الشاطئ الشرقي للنيل) واتخذ مغارة بها مسكنا له .

كان كفاح باخوم شديدا في هذه الوحدة الجديدة . وقيل أنه في احدى المرات قضى أربعين ليلة متوالية لم يذق خلالها النوم عاكفا على العبادة والصلوات ... وازاء كل هذا أخذ هذا الناسك الشاب يتأمل حياة الوحدة وما يكتنفها من مخاوف ومتاعب يتراجع كثيرون ممن يشتهون هذه الحياة أمام صعابها . فأخذ يصلي الى الله ليرشده إن كان هناك طريق آخر . استغرق باخوم في تأملاته وما يمكن ان يصنع في هذه الحالات وكيف يمكن أن يأخذ بأيدي الساعين نحو الكمال المسيحي . وقيل أن الرب استجاب لقلبه المتدفق حبا وصلواته ، فظهر له ملاك الرب بينما كان جالسا في مغارته وقال له " لقد أخلصت فيما يخصك من الأمور ، ومن الصباح ستظل هكذا مرتبطا بهذه المغارة . فيها اخرج من هنا واجمع كل الرهبان الشبان ، وأنا معهم حسب المخطط الذي سأعطيه لك وأفرض عليهم ما يلزم

santamariaegypt.org

من قوانين ثم سلمه لوحة نحاسية كتب عليها تلك القوانين التي تتعلق بحياة الرهبان أكلهم ، معيشتهم ، عملهم ، ملبسهم ، عباداتهم ، طريقة نومهم وقيل أن الملاك الى جانب هذه الوصايا المكتوبة سلم اليه نصائح شفهية . وكل ما يهمنا في هذا الأمر أن هذه القواعد التي سار عليها الأبا باخوم في نظامه الديري .

قام باخوم للحال وعرض الرؤيا والوصايا على معلمه بلامون فأمره بتنفيذها جميعا ومن ثم عاد باخوم الى طابنسين حيث بنى أول دير في العالم حوالي سنة ٣٢٠م وكان لهذا العمل من الآثار القومية التي تفاعلت ومازالت تتفاعل مع الزمان .

ولقد قسم الأبا باخوم الرهبان الى أقسام كل بحسب طباعهم وميزاته وألقى على كل قسم حرف من الحروف الأبجدية القبطية . ومن جهة العمل اليدوي توسع فيه . فلم يكتف بصنع السلال لكن رهبانه كانوا يمارسون الحرف المختلفة كالزراعة والتجارة والحدادة وغيرها وكان الهدف من العمل مزدوجا ، أولهما كسب العيش ، وثانيهما التغلب على البطالة وما يصاحبها من مضار روحية . علما أن الرهبان كانوا يردون المزامير اثناء العمل اليدوي .

وتتلخص قوانين الأبا باخوم التي تحرر بها بقوانين الشركة فيما يلي :

(١) طالب الرهبنة : بعد التأكد من أنه غير هارب من العدالة كان يقضي ثلاث سنوات تحت الاختبار يتعلم خلالها القراءة والكتابة ان كان يجهلهما . وكان لزاما عليه أن يحفظ عن ظهر قلب عشرين مزمورا ورسالتين من العهد الجديد . وكان يقيم أثناءها في سكن مجاور لباب الدير . فان ثبتت صلاحيته يسام راهبا وينتقل للسكن في قلالي الرهبان داخل الدير .

(٢) الملابس : كانت تمتاز بالبساطة التامة . يرتدي الراهب داخل الدير قميصا قصيرا من غير اكمام يصل الى الركبتين مصنوعا غالبا من التيل الخشن يحلوه منطقة (حزام عريض) من الجلد يشد بها وسطه ويغطي رأسه بقلنسوة وكان يسير عاري القدمين . أما

santamariaegypt.org

خارج الدير فكان يغطى كتفيه بجلد خروف أو ماعز (وهى من ميزات الرهبان فى ذلك الوقت) ويضع عباءه فضفاضة مغطاة بأعلاها قلنسوة الرأس ومرسوم على جبهتها علامة الدير وهو صليب ملون بلون خاص ليدل على المؤسسة التى ينتمى اليها الراهب وكان يلبس فى قدميه صندلا مفتوحا .

(٣) الطعام : كان يقدم للرهبان فى قاعة المائدة مرتين كل يوم ظهرا ومساء ولم يكن الحضور الزاما حتى تتاح الفرصة لبعض النساك الذين يتبعون نظاما خاصا فى حياتهم ولا يتناولون الأوجبة واحدة من الخبز والملح عند الغروب . وكان الطعام يتألف من الخبز والخضر والحساء والفاكهة وعلى ذلك فقد كان الرهبان الباخوميون نباتيين لا يأكلون اللحم ولا يشربون النبيذ الا فى ظروف المرض وكانوا يدخلون قاعة المائدة حفاة الاقدام حتى لا يسببوا ازعاجا وهم لابسون القميص والفروة والعباءة والطاقية والقلنسوة ويأكلون فى سكون دون أن ينظر الواحد منهم الى جاره . وفى أعلى القاعة منصة يقرأ من فوقها أحد الرهبان بعض القراءات المقدسة حتى ينتهى الرهبان من الطعام .

(٤) النوم : كانت القاعدة فى النظام الباخومى هى سكنى الرهبان كل ثلاثة فى قلاية وماتزال هذه الآثار واضحة فى بقايا دير القديس سمعان (انبا هدره) قرب أسوان وكل منها ثلاث مصاطب لكل منها رأس مرتفعة من الطين على شكل وسادة . وكان يفرض على الراهب أن ينام فى النصف الأول من الليل بينما يقضى النصف الثانى فى الصلاة والتسبيح حتى يصبح الصباح . وكان ممنوع أن يتجاذب اطراف الحديث داخل قلاليهم .

(٥) العمل اليدوى : كان اجباريا لا يعفى منه أحد حتى رؤساء الأديرة . ومن الحرف التى اشتغلوا بها صناعة الحصر والمقاطف من سعف النخل ونقل الحبال من الليف ، واشغال النجارة والحدادة والحياكة والرعى والزرع والعجن والخبز والطبخ ... الخ . كما كان يوجد من يشتغل بأعمال نساخة الكتب .

santamariaegypt.org

(٦) التعليم : وكان الأبا باخوم ثوريا فى هذه الناحية اذ قضى على الأمية فى أديرته بأن جعل القراءة والكتابة شرطا من شروط الالتحاق فى الدير على نحو ماذكرناه ونظم ثلاثة دروس يومية للمبتدئين فى الساعات الاولى والثالثة والسادسة من النهار (أى أول النهار والتاسعة والثانية عشر بالتقويم الافرنجى الحالى) بالاضافة الى دروس أخرى عامة يقدمها رؤساء الأديرة بأنفسهم يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية • وكان حضورها اجباريا على الجميع • على أن التعليم جميعه كان يهدف الى الناحية الدينية وحدها • وكانت المكتبات مفتوحة لكل قارىء يريد الاستفادة بما فيها •

(٧) العبادة : وضع لها نظاما ثابتا فى شقيها الجماعى والانفرادى • كانت الصلاة الجماعية تقام بالكنيسة ثلاث مرات كل يوم : فى الصباح ووقت الظهر وفى المساء وهذه يحضرها جميع الرهبان بلا استثناء • أما الصلاة الانفرادية فكان الرهبان يؤدونها فى قلاليهم ، كما كانوا يشتركون فى القداس الالهى فى صباح يومى السبت والاحد •

(٨) العقاب : لا مندوحة من وجود القوانين الرادعة فى الجماعات الكبيرة العدد لردع الخارجين على النظام والمستهترين • وكان العقاب يتدرج من اللوم والتوبيخ الحلى والحرمان من وجبات الطعام فضلا عن الاعفاء الصغيرة كالضحك أو النظر يمينا أو يسارا على مائدة الطعام ، أو العقاب البدنى أو الجلد بالسياط والحبس للمتذمرين ومن اليهم ، الى الطرد من الدير لكل من لا يرجى اصلاحه •

(٩) الادارة : وتتضح عبقرية باخوم ومقدرته الفائقة فى التنظيم الذى وضعه لادارة أديرته : كانت الادارة المحلية لكل دير توكل الى رئيسه يعاونه نائب رئيس وله أمين ومخازن للمكتبة بالاضافة الى النقابات المختلفة التى تتطلبها طروف العمل فى كل دير كالمعلمين والخبازين والنجارين والبنائين والسداد ين والزراع والحمالين والنساجين ••• الخ فكان لكل من هذه النقابات رئيس يشرف على عملها تحت إشراف رئيس الدير أو نائبه • ولما كثر الرهبان وتنوعوا

santamariaegypt.org

تسموا الى أسر كل أسرة تضم رهبان جنس معين وذلك بعد ان أجتذبت حياة الشركة رهبانا من أمم متباينة • وكان لكل أسرة معلم من جنسها للتفاهم مع بني جنسه ولارشادهم •

أما نظام المركزيـــــة فيتجلى في أن كل ثلاثة أو أربعة أديرة متقاربة يكونون مايسمـــى بالقبيلة يشترك رؤساؤها في انتخاب واحد من بينهم ليكون زعيما لتلك القبيلة • وهـــؤلاء يجتمعون من وقت الى آخر للتشاور فيما يهمهم • ثم أن جميع رؤساء الأديرة وزعماء القبائـــل يخضعون خضوعا مطلقا لرئيس الأديرة العام سواء باخوم أو خلفائه • وكان اشراف الرئيـــس العام يتم عن طريقين : الأول الزيارات • والثاني عقد اجتماعين عامين كل سنة يحضرهـــا جميع رهبان المؤسسات الباخومية في الدير الرئيسي في بابـــو Pabau وكان الاجتمـــاع الأول يعقد على عيد الصعود والاجتماع الثاني في الثاني والعشرين من شهر مسرى وفـــي اجتماع مسرى يبحث في مسائل الأديرة واستعراض حالتها ومحاسبة رؤسائها • كان المجلس يقرر السياسة العليا العامة التي يجب على الرؤساء اتباعها لحسن سير العمل والنظـــام والعبادة في كل الأديرة • ثم يعلن الرئيس العام أسماء الرؤساء الذين الجدد ، كمـــا يعلن التنقلات بين رؤساء الأديرة • وأخيرا في جلسة ختامية يحضرها جميع الرهبان تسـرد ى الصلاة عامة • وفي مشهد مؤثر يعلنون مغفرة الخطايا والصفح العام عن المذنبين ويبـــارك الرئيس الأعلى جميع الحاضرين •

ولا يفوتنا ان ننوه بعناية الأبا باخوم بالمرضى عناية شاملة كاملة روحيا وجسديا • كما كان يرحب ترحيبا كبيرا بالضيوف وكانوا يمثلون سيلا متدفقا • وكان في كل دير بيت للضيافـــة ملاصق لمدخل الدير وداخل جدرانه ، لكنه لايتصل برحبات الدير ولا بمقالي الرهبان •

وخلاصة القول أن حياة الشركة التي أسسها الأبا باخوم كانت نمطا جديدا في تاريـــخ الرهبانية ومظهرا رائعا في زمن كانت الفوضى ضاربة أطنابها في أرجاء الأمبراطورية الرومانيـــة التي أخذت هيبتها في الزوال والتدهور ازاء هجمات القبائل المتبربرة في القرن الخامس الميلادي •

santamariaegypt.org

اتساع الديرية الباخومية

كان من آثار حياة الشركة التي أسسها الابا باخوم أن تتاطرت عليه أعداد ضخمة من محبي الحياة النسكية حتى ضاق الدير الأول الذي أسسه في طابنسين ، ولذا اخذ في تأسيس أديرة أخرى في مناطق قنا وطيبة . فبنى ديرا في ببو ، أبو ⲥⲓⲙⲱⲛ (في قاو الحالية) وبانوبوليس (هي أخميم ⲭⲙⲓⲛ) وتابن وتسمانى (ⲧⲥⲙⲛⲏ شمال أخميم) وباخنوم ولاتوبوليس (إسنا) كما بنى أديرة أخرى في مونكوزس وثيبيو . كما أسس ديرا للعذارى كانت نواته الأولى مريم شقيقة الأبا باخوم نفسه ويخبرنا بلاديوس بأن أديرة باخوم ضمت ثلاثة آلاف أثناء حياته وسبعة آلاف سنة ٤٢٠م وفي السنة التي أتم فيها بلاديوس كتابه " بستان الرهبان " أما يوحنا كاسيان الذي زار مناطق الرهبان حوالي نفس هذا التاريخ فيقدر عددهم بنحو خمسة آلاف راهب باخومي وذكر القديس جيروم الذي كتب في سنة ٤٠٤ م أن عدد الرهبان الباخوميين بلغوا أثنى خمسين الف راهب . وهذا العدد وان كان مبالغا فيه لكنه يعطينا فكرة عن الازدياد المطرد في اعداد رهبان مؤسسات باخوم .

خاتمة حياته : أخيرا حانت ساعة مغيب شمس هذا القائد العظيم والراعي الصالح بعد حياة حافلة بجلائل الاعمال وذلك عندما تفشى وباء الطاعون في مصر سنة ٣٤٨ م ولحق الأديرة الباخومية وعصد كثيرا من الاخوة . في هذه الأثناء كان ينتقل باخوميوس بين تلاميذه من الصابين لتمريضهم ودفن الموتى منهم وتشديد إيمان الجميع ، غير عابئ بما يحيق به من خطر . وما أن عبر عيد الصعود في تلك السنة الا وبدأ يشعر بأعراض المرض فجمع أبناءه وأوصاهم أن يحافظوا على النظام الذي وضعه . ولهم أن ينتخبوا من يشاءون خلفا له ولكن كمجرد اقتراح يقترح ان يخلفه بترنيوس .. Petronious . أخيرا وقد واسترال في الرهب وله من العمر سبعة وخمسين عاما . وبعد دفنه في كان معين في الجبل قبل جثته واحد من تلاميذه سرا الى بقعة غير معروفة تنفيذا لوصيته حتى لا يكون جسده موضع تبجيل وتقديس واكرام .

santamariaegypt.org

قوانين باخوميوس في الضرب

كتبت قوانين باخوميوس أولا باللغة القبطية ، ثم ترجمت الى اليونانية لعدة الرهبان الوافدين من خارج مصر والذين كانوا يتكلمون اليونانية . وقد ترجم القديس جيروم (ايرونيموس) ناسك بيت لحم تلك القوانين الى اللاتينية عن اليونانية في سنة ٤٠٤ م . وقد أتاحت ترجمة قوانين باخوميوس الى اليونانية واللاتينية انتشارها في الضرب كما كان لها تأثير واسع النطاق . فقد استعان بها القديس باسيليوس الكبير في وضع قوانينه النسكية . وكثير من قوانين الرهبنة التي ظهرت في الضرب تستمد جوهرها من قوانين باخوميوس . ومن أمثلتها قوانين بندكت مؤسس الرهبنة في الضرب الذي أستعار معظم فقراتها من قوانين باخوميوس .

santamariaegypt.org

أنبا شنودة رئيس المتوحدين

ولد سنة ٣٣٢ م بقرية شنلالة شمال غربى أخميم من والدين تقيين موسرين ، ربياه فى خوف الله ، وقد أظهر منذ طفولته نجابة روحية فائقة . كان والده يرسله مع رعاة غنمه كنوع من التدريب على العمل ، ولوحظ أنه كان ينفرد للصلاة بجوار بئر فى وقت الغروب حتى وقت متأخر من الليل ، وهو دون العاشرة من عمره . وهنا ظهرت تقوى والديه . اذ لما عاينا ميله للتقوى ، صحبه الى خاله وكان راهبا يدعى بيجول الذى تنبأ له بمستقبله الروحى ومن وقتها لازم الصبى شنودة خاله الراهب منذ تلك الفترة المبكرة من حياته . وقد شهد أحد شيوخ الرهبان أنه كان يرى أصابعه تلمع لمعان الشموع المضاءة حين كان يرفع يديه للصلاة .

أظهر شنودة نشاطا روحيا فائقا فى حياته الرهبانية وألبسه خاله الاسكيم المقدس بعد أن أعلن له ذلك فى رؤيا وتنبأ أنه سيكون أبا لجماعة كبيرة مباركة . وخلال هذه السنوات عاش فى الدير الأحمر المجاور لسوهاج حيث كان بيجول أبا لرهبانه . انفرد شنودة فى مغارة فى الصحراء بعيدا عن الدير ، وقضى فترة طويلة متوحدا فى صلوات وتأملات دون أن يهمل العمل اليدوى . وبعد خمس سنوات قضاها فى المغارة عاد الى الدير ، وكان الرهبان ينظرون اليه نظرة إكبار . وقيل أنه فى أحد الأيام سمع الرهبان الشيوخ صوتا يقول " لقد أصبح شنودة أرشمندريت أى رئيسا للمتوحدين " . ولاشك أن غيرة شنودة وتداسته والاستعلانات الالهية التى منحت له كانت سببا فى اجتذاب عدد كبير من الراغبين فى حياة النسك . فلما انتقل بيجول الى السماء سنة ٣٨٢ م كان طبيعيا أن ينتخب الآباء شنودة خلفا له رئيسا للدير .

شخصيته : عمّر الأنبا شنودة حتى بلغ الثامن عشر بعد المائة قضى منها ستة وستين عاما رئيسا لبضعة أديرة بعضها للرهبان وبعضها للراهبات . أسس مركز أديرة فى مواجهة المدينة الأثرية بانوبوليس Panopolis (أخميم الحالية) من جهة الغرب حيث يقوم الآن الدير الأبيض . ومع هذا العمر الطويل منحه الله صحة وحيوية . كان الأبا

santamariaegypt.org

شنودة رجلا شديد المراس وأشد عنفا من الأنبا باخوم • كان قبطيا صميما ومن أئمة العاملين على تنقية اللغة القبطية وآدابها من التأثيرات البيزنطية حتى أن الأستاذ " وليم رول " في كتابه " موجز تاريخ القبط " يقول عنه أنه اعظم كتاب الأدب القبطي • ويصفه بأنه أعجب شخصية أنجبها القبط ، بل هو في الواقع المؤسس الحقيقي للكنيسة القبطية •

عاش الأنبا شنودة في عصر يتأجج بنيران الأحداث والانفعالات • وفيه أندحرت الوثنية نهائيا بعد أن حاول الأمبراطور الجاحد يوليانوس عبثا أن يعيدها الى الوجود • وفي سنة ٤١٢م في بطريركية ثاؤفيلس ٢٤ دمّر السرابيوم في الاسكندرية وكان مقرا ورمزا للنشاط الوثني السياسي في مصر • وفي حياته عقد مجمعان مسكونيان في القسطنطينية وأفسس سنة ٤٨١م وسنة ٤٣١م ، والمجمع الذي عقد في أفسس سنة ٤٤٩م برياسة البابا ديسقوروس ومجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذي فيه حدث الانشقاق الكبير في العالم المسيحي • بل أنه صحب البابا كيرلس الكبير الى المجمع المسكوني الثالث في أفسس • ومع أنه كان شغوفا بالعزلة الا أنه شارك العالم حياته ، فكان يرقب الأحداث والتقلبات السياسية لأنها كانت تنعكس على حياة مواطنيه • كان يستمع الى أنينهم والمظالم التي ينزلها بهم المستعمرون الدخلاء فنهم على تحريرهم • أخذ يحرّر نفوسهم ايمانيا بالصلوات والتعاليم ، وتزن تحليمه بالعمل حينما كان يطعم الجائع ويكسو العريان ويداوي المريض ويأوي الغريب وفوق كل هذا كان يذهب بنفسه مع المظلوم الى ساحة القضاء ليدافع عنه شخصيا • فان لم ينجح في انتزاع العدالة توجه بالشكوى الى الأمبراطور وكان لا يهدأ حتى ينال المظلوم حقه • وهكذا علّم الاقباط كيف لا يستكينون للمظالم والظالمين ظالما هناك فرصة لاستخلاص حقوقهم المسلوبة بهذا الوعي استطاعوا ان يقفوا وقفتهم التاريخية الحاسمة من مجمع خلقيدونية حيث رفضوا أن يحنوا رؤوسهم لأوامر الامبراطور المرقيان ، ويقبلوا مذهب الخلقيدونيين الذي يخالف عقيدتهم الأرثوذكسية • ولاشك أن هذه الحركة التي قام بها أبا شنودة أيقظت الوعي المصري لتحقيق استقلال مصر من الناحية الدينية عن القيسطنطينية • تلك الحركة التي أخذت في الاضطراد حتى شملت الحياة الاجتماعية المصرية ، وتطورت في النهاية

santamariaegypt.org

الى درجة الطامح الى الاستقلال السياسي عن الدولة البيزنطية • ومن ذلك يتضح أن شنودة يمكن أعتباره — الى حد ما — من بناة أول مشروع استقلالي لهذا الوطن منذ الاحتلال الفارسي على يد قمبيز سنة ٥٢٥ ق.م وعداء شنودة لكل ماهو بيزنطي يفسر لنا السر في أن أديرته ظلت قبطية خالصة على عكس الأديرة الباخومية التي كان لها طابعا دوليا يؤمها المصري وغير المصري • وهكذا كان شنودة في كل الأقاليم المحيطة بديره زعيما يتطلعون الى معونته وقديسا يلتمسون بركته وليس أدل على ذلك من الحادث الآتي :

أغارت قبائل البابات بعض القرى التي في الصعيد في منطقة أخميم فقتلوا ونهبوا وسلبوا ثم انقادوا من بقي من أهالي تلك القرى الى الأسر • وما أن سمع الأنبا شنودة بما حدث حتى سارع الى مقابلة رؤساء تلك القبائل وقال لهم " احتفظوا بكل الآسلاب والغنائم وأعطوني كل الأسرى " فوافقتهم كلماته وسلموه الناس الذين أسروهم فأخذهم فرحا وسار أمامهم وهم يتبعونه في نوع واستبشار واجتاز بهم النيل الى أن وصلوا الى ديره الأبيض حيث استضافهم ثلاثة شهور كاملة • وحالما وصل بهذه الجماعات العديدة والنساء والأطفال نادى على رهبانه وركل لكل جماعة منهم عملا يؤدونه تحمل سبعة رهبان أطباء الجرحى من بين الجموع ووضعوهم في المكان المخصص للمرضى بالدير وسهروا على راحتهم • وفي الوقت عينه اهتم غيرهم من الرهبان بالشيوخ والأطفال • وفي خلال الثلاثة الشهور التي قضاها هؤلاء اللاجئون في الديرمات منهم أربعة وتسعون شخصا ودفنوا في الدير بينما ولد لهم اثنان وخمسون طفلا وقد استنفدوا في تلك المدة ٥٨ ألف أردب من القمح المخزون عدا العدس والبقول ••• الخ •

ولم يكن الأنبا شنودة أبا لجمهرة من الرهبان فحسب بل كان أبا لألف وثمانمائة راهبة أيضا • وقد كتب لهؤلاء الراهبات رسائل عديدة بقصد التعليم والارشاد والتثبيت على الايمان القويم • ومازال عدد كبير من مواعظه وعظاته بين أيدينا ينطق بعلو كعبه في الأدب القبطي وعمقه في الفكر والروحيات • أخيرا بعد شيخوخة صالحة انتقل الى كنيسة الأبكار في السابع من أبيب سنة ٤٥١ م •

santamariaegypt.org

أنظمتـــه الرهبانيـــة

ومع قلة الوثائق والمصادر التي تحدثنا بمعلومات عن حياة الأبا شنودة وأنظمته وأديرتـــه فاننا نستطيع أن نلخص انظمته الرهبانية فيما يلي :

(١) دالبو الرهبنـــة : أفرد الأبا شنودة مساكن خاصة خارج أسوار الدير واستحدث شنودة تعهدا يكتبه كل من تثبت صلاحيته للرهبنة قبل رسامته راهبا باتباع قوانين الديـــر والرهبنة أيضا نص هذا التعهد فكان :

" أتعهد أمام الله في هذا المكان المقدس وتشهد علي الكلمات التي تخرج من فمي أنني لن أدنس جسدي بأية وسيلة ولن أسرق ولن أشهد زورا ولن أكذب بأية طريقة ولن أباشر أعمـــال الغش في الغذاء . فاذا نقضت هذا العهد فلأشاهد ملكوت السموات دون أن أدخلهـــا وليدمر الله نفسي وجسدي في نار جهنم اذا نقضت العهد الذي أخذته على نفســـي في حضرته " . وأهمية هذا العهد من الناحية الديرية أنه أول مظهر للنذور الرهبانيـــة التي شاع أمرها في أديرة العالم فيما بعد .

(٢) العبـــادة : كان لها المكان الاول في ديرية شنودة ويتضح ذلك ممـــا جاء بقوانين الدير " أن العمل الذي من أجله جاء كل واحد الى هذا المكان هو الكتـــاب المقدس والكتب التي وضعت لنا ... اذا كنت تأتي الى هذا المكان لتعمل في حرفة ولاتعمـــل لأجل خلاص نفسك فأمامك المكان الذي أتيت منه وعد اليه لتمارس صناعتك " وقد نظمهـــا الأبا شنودة وجعلها على أربعة أنواع :

(أ) صلاة قصيرة تردد كل مجموعة من الرهبان قبل البدء في العمل المنوط بها .

(ب) صلوات خاصة تشمل المزامير والتسابيح وغيرها . وتركت الحرية لكل راهب فيمـــا يقول وفي المواعيد التي يختارها .

santamariaegypt.org

(ب) الصلاة الجماعية ، وقد خصص لها أربعة مواعيد يوميا : صباحا وظهرا وعند الغروب وليلا . وكان الرهبان يلزمون الصمت التام في ذهابهم للاشتراك فيها وفي عودتهم الى تداليهم بعد انتهائها .

(د) القداس الالهي وسمح للشعب أن يحضره وكان يفتح لهم أبواب الدير من مساء السبت . وعقب الانتهاء من القداس الالهي كان يعد لهم موائد لاطعامهم . كان الرهبان يعدونها خصيصا وكان الانبا شنودة ينتهز فرصة وجود الآلاف الناس داخل أديرته فيعظهم ويرشدهم الى الايمان الارثوذكسي

(٣) التعليم : لعل الأنبا شنودة لم يهتم بأمر ما قدر اهتمامه بتعليم تلاميذه وتثقيفهم . وهكذا غدا رهبانه أكثر طبقات المصريين نصيبا من ذلك ، ولشدة ايمانه واهتمامه به وسع نطاقه حتى شمل أهالي المناطق المجاورة لديره . وكان يهدف الى القضاء على الخرافات الايحائية والتعاويذ السحرية . كما انتقم بهم من الناحية الصحية الحالية . ويقول عنه الأستاذ ورل Worrel الذي ذكرناه آنفا " وكان كل مجهود شنودة ونشاطه الاداري موجها نحو محاربة الوثنيين واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الدنيء والبدع الاجتماعية المختلفة من الأعياد الدينية .

(٤) العمل اليدوي : كان العمل اليدوي اجباريا على رهبان الدير الأبيض وقد نظمه الباخومية . وكان يراعى أن يعمل كل في الحرفة التي كان يمارسها قبل رهبنته وكان أرباب كل حرفة ينتظمون جميعا تحت رقابة رئيس مشترك واحد . أما الذين لم يكن لهم خبرة سابقة بعمل معين فكانوا يخضون الخوص وينتلون الحبال من الليف . وحتى الأنبا شنودة نفسه كان يقوم بهذا العمل نفسه اثناء خلوته ، ولم يكتف بتعليم رهبانه الحرف بل أضاف اليها فن الكتابة ، فألحق بالدير الأبيض مدرستين لتعليم الموهوبين من الرهبان فن نساخة الكتب وزخرفتها " مدرسة تحسين الخطوط " .

santamariaegypt.org

(٥) الطعام والملابس : كانت على نمط الأديرة الباخومية تقريبا .

(٦) حياة العزلة : لم يكن نظام الشركة اجباريا فى أديرة شنودة بل أنه شجع حياة العزلة . وكان المتوحدون يأتون الى الدير من وقت الى آخر ليأخذوا لوازمهم من الخبز والماء أو ليحضروا الاجتماعات السنوية - وهكذا جمع الأبا شنودة بين النظامين الأنطونى والباخومى . ولم يكن هذا اللون من الجمع بين الحياتين قاصرا على بعض رهبانه بل لقد مارسه هو نفسه اذ كان يقضى بعض الوقت فى الدير والبعض الآخر فى مغارة منفردة .

(٧) الادارة : كان لمجموعة أديرة الأبا شنودة رئيس أعلى لقّب منذ القرن الخامس بالأرشمندريت . وكان هو ووكيله مسئولين عن ادارة الدير الرئيسى والاديرة الفرعية التابعة له . وكان لكل دير فرعى مشرف مسئول عن تنظيم الأعمال اليدوية فيه . أما القيادة الروحية فكانت للرئيس الأعلى . ومن ثم كان يعقد أربعة اجتماعات سنويا يحضرها جميع الرهبان حتى المتوحدون .

وكان رهبان الدير الأبيض هم وحدهم المتعلمون بين راهبات الفلاحين ورجال الدين أنفسهم فقد كانوا جميعا يعرفون القراءة كما كان البعض يعرف الكتابة . وكان بينهم المزارعون المهرة والبناؤون والأطباء ... الخ .

santamariaegypt.org

تنسك ورهبنة المذاري

بدأ تنسك المذاري ورهبنتهن منذ وقت مبكر في تاريخ الكنيسة • وعلى نحو ما مرت رهبنة الرجال بعدة مراحل حتى وصلت الى حياة الشركة الرهبانية ، كذلك كان الأمر بالنسبة للمذاري •

(١) المرحلة الأولى لتنسك المذاري كانت داخل البيوت ، كن يتعبدن في بيوتهن محافظات على طهارتهن وتوليتهن مع المداومة على العبادة وقراءة الكتب المقدسة وكمثال لهذه المرحلة ، بنات فيلبس المبشر الأربعة المذاري في مدينة قيصرية اللائي كن يتنبأن (أع ٢١ : ٩) • وحينما يقول بولس في (١ كو ٧ : ٢٥) " وأما المذاري فليس عندي أمر من الرب فيهن " فان ذلك يدل على وجود نظام " المذاري " كما يفهم من منطوق الآية • ومعنى هذا أن هذه المرحلة بدأت مع بداية الكنيسة وفي عصرها الرسولي •

(٢) المرحلة الثانية هي المرحلة التي ظهرت فيها " بيوت المذاري " ويبدو أن أشكال هذه البيوت ظهرت منذ وقت مبكر ، وتحت اشراف الكنيسة • ويبدو أيضا أن هذه البيوت كانت تضم الى جانب المذاري الأرامل اللائي نذرن عدم الزواج بعد ترملهن (أنظر ١ تي ٥ : ٣ ـ ١٠) في أحد هذه البيوت أودع ديمتريوس الكرام البطريرك الاسكندري ١٢ (١٨٨ ـ ٢٣٠ م) زوجته الذي عاش معها مدة ٤٨ سنة في بتولية كاملة لمنع الشهرة بين الشعب • وفي بيت منها أودع القديس آمون أبجبل نتريا زوجته بعد أن عاشا معا بتوليين ، لما عزم على الانطلاق الى البرية • وهكذا فعل الأنبا أنطونيوس الكبير بأخته ، التي صارت بعد ذلك مشرفة على عدد كبير من المذاري •

(٣) المرحلة الثالثة التي تكونت فيها أديرة للمذاري • وأول من أسس ديرا للمذاري هو القديس باخوميوس أب الشركة الذي أسس لأخته مريم ديرا في طبانسين ، بلغ عدد

santamariaegypt.org

راهباته ٤٠٠ راهبة ، ويقال أنه اتبعه بدير آخر أسسه بجهة قحنة قرب أدفو . وقد وضع باخوميوس لهذين الديرين قانونا سارت عليه الحذارى . وقد تبع ذلك انتشار أديرة الحذارى بأنحاء مختلفة بالبلاد ومنها الى خانق مصر .

في صعيد مصر : يذكر بلاديوس كاتب بستان الرهبان الذى زار مصر أواخر القرن الرابع أنه زار ديرا للراهبات فى أتريب بجوار اخميم ، وكان يشرف على ادارته أحد الرهبان الشيوخ ، الذى كان يقيم فى حجرة عالية لا تتصل بالراهبات من داخل الدير ، بل كان بابها يفتح الى خارج . وذكر اميلينو Amélineau فى مقدمة كتابه " مؤلفات شنودة Les Oeuvres de Shenoudi " أن القديس باخوميوس انشأ ثلاثة أديرة للحذارى فى منطقة أخميم وحدها . وفى هذه المنطقة انشأ ابنا شنودة بعد ذلك مركزا لرهبنة الحذارى كان يضم ١٨٠٠ راهبة .

وفى منطقة أنصنا (الشيخ عبادة) وجد تجمع كبير للراهبات تحت اشراف الأم تاليس Talis التى ظلت ثمانين عاما فى النسك . وفى منطقة البهنسا تجمع نحو عشرين الف راهبة تحت تدبير أسقف . وفى قرية ريفا بأقليم ليكوبولس (أسيوط) وجد دير للراهبات الحذارى ، وفى بلدة فاو (مركز قنا) أنشأ تادرس تلميذ باخوميوس ديرا للحذارى ، وكان فى قفط دير للراهبات على اسم الشهيد مارجرجس . كما وجدت أديرة للحذارى فى أقاليم الفيوم والجيزة .

فى الوجه البحرى : وجد دير على اسم الشهيدة دميانة ببراوى بلقاس ، حيث تنسكت الشهيدة دميانة ومعها أربعون من الحذارى استشهدن جميعا فى زمن دقلديانوس . ويذكر أبو المكارم أنه فى القرن الحادى عشر كان ببلدة دمروه مركز المحلة الكبرى دير للراهبات كانت رئيسته تدعى الأم قمرية . كما وجد دير للراهبات فى سنباط (مركز زفتى) فى نفس تلك الفترة . ووجد دير للراهبات قرب منوف على اسم الأنبا أرميوس كان فيه ٣٠٠ راهبة .

santamariaegypt.org

في القاهـــرة : يذكر المؤرخ المقريزى أنه فى زمانه أى فى القرن الخامس عشر كان بالقاهرة سبعة أديرة للراهبات (٢ فى حارة زويلة + ٢ حارة الروم + دير المطلقة وكان أشهـــر ديارات الراهبات + دير القديسة بربارة + دير مارجرجس بمصر القديمة + دير مارمينـــا بمصر القديمة) .

فى الاسكندريـــة : وجدت أديرة كثيرة للراهبات بضواحى الاسكندرية خاصة فى غربهـــا — دون التدخل فى الصحراء — ونظرا لعدم امكان اقامة الراهبات المذارى فى الـــبرارى والجبال بل فى مناطق قريبة من المدن . وقد اشار الى ذلك ساويرس بن المقفع فى كتابه تاريخ البطاركة فى سيرة الأنبا تيموثاوس البطريرك ٣٢ (٥١٧ — ٥٣٥ م) وتاريخ البابـــا بطرس ٣٤ (٥٦٧ — ٥٦٩ م) ، وكذا فى تاريخ البطريرك اندرونيكوس ٣٧ (٦١٦—٦٢٢م) وهناك دير للمذارى تلال شهرة كبيرة أسسته أنستاسية عرف باسم دير الزجاج ، ويقع فـــى موقع الدخيلة الآن . وقد عاشت القديسة انستاسية فى هذا الدير فى القرن السادس قبـــل ان تنتقل الى برية شيهيت . وورد فى سيرة القديسة تومايس الصفيفة اشارة الى ديـــــر للراهبات هو دير الاكتوذيكانون (الثمانية عشر) لانه كان يبعد عن الاسكندرية ١٨ ميـــلا وموقعه لجوار بلدة العامرية ، ويرجع الى القرن الخامس . وكذلك دير الايكوسلـــــون (العشرين) لأنه كان يبعد ٢٠ ميلا عن الاسكندرية ويرجع أيضا للقرن الخامس .

راهبات عشن فى البرارى

حدث فى العصور القديمة أن بعض المذارى ممن توفرت لديهن الشجاعة ، تعبّـدت فى قلب الصحارى فى كهوف ومغاير وشقوق الأرض . ومنهن من ارتدين ثياب الرجال والتحقن بأديرة الرهبان متنكرات بأسماء الرجال . ومن أمثلتهن الراهبة ليديا من تسالونيكى الـــتى تزينت بزى الرجال وزارت مكاريوس الاسكندرى . وأمضت سنة كاملة فى قلاية بمنطقة القلالـــى وكانت تقابله كأحد الرهبان مرة كل أسبوع . ومنهن أيضا الراهبة أبولينا ريا ابنة الامبراطـــور

santamariaegypt.org

انتيموس الكبير التى رغبت فى حياة التقشف فرفضت الزواج ، ورحلت فى قافلة حج الى أورشليم ومنها الى الاسكندرية حيث لبست ثوب الراهبات ثم الى الاسقيط حيث سبت نفسها الراهب دوروثيوس ، وكان ذلك فى حياة مكاريوس الكبير وظلت شخصيتها مخفية ولم يكتشف أمرها أنها عذراء الا عند تجهيزها للدفن بعد وفاتها . وبعض العذارى أبقين فى حياة النسك وضروب التقشف فكان منهن المحبوسات ، ومنهن من وصلن الى مرتبة السياحة ، وعشن تائهات فى الجبال والبوارى ومن أمثلتهن مريم المصرية التى ساحت فى برية الأردن لمدة ٤٧ سنة لا ترى وجه انسان حتى التقى بها القس زوسيما الذى دفن لنا سيرتها .

الأديرة العامرة :

ويوجد حاليا بالكنيسة القبطية ستة أديرة للعذارى هى :

دير العذراء ، دير مارجرجس بحارة زويلة ، دير الأمير تادرس بحارة الروم ، دير مارجرجس ودير أبى سيفين بمصر القديمة ودير القديسة دميانة فى برارى بلقاس .

تواقيع من الراهبات العذارى

القديسة اناستاسية المتوحدة بشبهيت

عذراء شريفة من القسطنطينية ، كان لها مركز مرموق فى بلاط الامبراطور البيزنطى جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) وزوجة الامبراطور ثيودورة ، أعجب الامبراطور لجمالها وذكائها وهام بحبها وأراد الزواج منها ، لكن زوجته كانت على قيد الحياة ، وإذ ضاقت اناستاسية ذرعا بمضايقات يوستنيان ، وكانت قد عزمت فى قلبها أن تكون عروسا للمسيح فقررت ترك القصر الامبراطورى ، بل ومدينة القسطنطينية كلها ، رحلت خفية الى الاسكندرية ، وعلى مقربة منها (وربما عند موضع الدخيلة الحالى) أسست ديرا ظلت تتعبد فيه ، وكان هذا الدير يسمى باسم دير أناستاسية البطريقة أى الشريفة ، وبعد وفاة الامبراطورة سنة ٥٤٨ م

santamariaegypt.org

جدّ الامبراطور فى البحث عن أنستاسية ... واذ أحست هى بذلك ابتكرت طريقة للهرب تنكرت فى زى الرجال وتوجهت الى برية شيهيت وتباركت من أجساد التسعة والأربعين شهيدا شيوخ شيهيت ، وقابلت الأنبا دانيال قمص شيهيت وأعلمته بأمرها . أما هو فعيّن لها احدى المغارات فى البرية الداخلية فى جهة منعزلة ، وكان يرسل لها تلميذه كل اسبوع مرة يمدها باحتياجاتها من الزاد والماء . وظلت هكذا لمدة ٢٨ سنة لا يعلم أحد عن أمرها شيئا حتى تنيحت سنة ٥٧٦ بعد أن جاهدت جهاد الرجال من أجل الاحتفاظ بطهارتها وحبها لعريسها السمائى .

القديسة ابولنير Apollinaire :

عذراء شريفة من القسطنطينية كانت أبنة أحد أشراف المملكة فى عهد ثيودوسيوس الثانى . عشقت حياة البتولية والوحدة . وظلت تلح على والدها المؤمن يوما بعد يوم حتى وافق على بقائها عذراء . رحلت الى أورشليم لزيارة الأماكن المقدسة . وهربت سرا الى قرب الاسكندرية لزيارة جسد الشهيد مارمينا بمريوط وتتبرك من جسده . وقد استقبح قريب من ذلك الموضع خلعت ثيابها ولبست ثياب راهب كانت تحتفظ بها . وظلت تتعبّد بمخفية فى ذلك المكان . وقيل أنها كانت تقتات من ثمر شجرة نخيل فى الموضع . تسمت باسم الراهب دوروثى وتركت المكان الى جبل نتريا ، وهناك تقابلت مع القديس مكاريوس الاسكندرى الذى اعطاها مغارة مهجورة على منحدرات جبل نتريا . وقد أظهرت فى حياتها نسكا وتواضعا شديدا . كان لها أخت بها روح نجس شديد طالما عذّبها . أرسلها والدها من القسطنطينية الى شيوخ ورهبان البرية لكى يشفوها . فوقع اختيار الآباء على الراهب دوروثى لشدة تقواه وقداسته . وفعلا شفاها وعادت الى أبيها ثانية بالقسطنطينية لكن الشيطان عاودها ثانية وأتعبها . فأضطر والدها الى أن يرسل لآباء نتريا ليرسلوا الأب دوروثى الى القسطنطينية ليصلى عليها فتشفى . وتحت الحاح الآباء قبل دوروثى وسافر الى القسطنطينية . وهناك شفيت البنت نهائيا . وفى تلك الفرصة صار انكشاف

santamariaegypt.org

أمرها وتعرّف عليها والداها . لكنهما كانا عند وعدهما فأطلقاها الى البرية ثانية حيث عاشت وأكملت جهادها الحسن . واذ أحست بدنو ساعة رحيلها من العالم ، استدعت الأنبا مكاريوس الاسكندري وأعلمته بقرب انطلاقها من العالم وطلبت اليه أن يدفنها كما هي دون أية مراسيم للدفن . وفعلا نفذت وصيتها . لكن الآب كشف أمرها للقديس مكاريوس ودفنت في مقبرتها التي طالما تعطرت بصلواتها .

santamariaegypt.org

" آثار الرهبنة المصرية فى العالم القديم والمعاصر "

ذكرنا فيما ذكرنا أن الرهبنة المسيحية ظهرت أول ماظهرت فى مصر ، وانتشـــرت فى الصحارى التى على جانبى وادى النيل شرقا وغربا ... وكذلك الديرية المسيحية عرفت أولا فى صعيد مصر الأعلى على يد الأبا باخوم ، وسرعان ما انتشرت أديرة الشركة فـــى القطر المصرى من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال . وكان نتيجة ذلك أن ذاع صيت الآبـاء المصريين فى أرجاء العالم فاجتذب الى مصر جميع الذين أحسوا بشوق نحو الحياة النسكية فجاءوا الى وادى النيل ووفدوا الى الصحارى المصرية جماعات من أجناس مختلفة بعضهم تتلمذ لمدة سنوات على أيدى النساك المصريين ، وبعضهم تنقل بين مختلف التجمعـات الرهبانية زائرا ودارسا وبعودة بعض هؤلاء الى اوطانهم نقلوا الرهبنة اليها ، وأســـسوا مراكز رهبانية فى جهات مختلفة من أنحاء العالم .

والآن نستعرض الوسائل التى انتقلت بها الرهبنة المسيحية من مصر الى العالم الخارجى

(١) سيرة الأبا أنطونيوس : التى كتبها البابا أثناسيوس الرسولى فى منفاه فى مدينـــة تريف على الحدود بين فرنسا وبلجيكا فى الفترة من سنة ٣٣٦ ـ سنة ٣٣٨م . وهى أول أثر للرهبنة المسيحية فى الغرب . وكانت لفترة النفى للبابا أثناسيوس فى روما (٣٤٠ ـ ٣٤٩م) أثر كبير فى المجتمع الأوربى ، ساعد على نشر المبادئ والتنظيمات الرهبانية والديريـــة كان يصحبه فى النفى الثانى راهبان قبطيان من رهبان وادى النطرون هما أمونيوس وايسيذوروس وعن طريقهم عرفت أخبار الرهبنة فى مصر . لقد أقام أثناسيوس ومن معه فى منزل أرملة مسيحية اسمها مارسيللا وكان ظهورهم فى روما موضع اعجاب وباعثا على تأسيس شركات روحية . وكانت أحاديثه عن العذارى والأرامل المصريات دافعا الى حياة الرهبانية النسائية فى غربى أوربـــا وكانت مارسيللا هى نواة هذه الحياة الجديدة .

santamariaegypt.org

(٢) النساك والرحالة الذين وفدوا الى مصر فى القرن الرابع ، وزاروها أو اقاموا فيها اقامات متفاوتة ، ونقلوا الى بلادهم نماذج الحياة الرهبانية والديرية التى رأوها بأنفسهم فى مصر ، سواء بأحاديثهم وسلوكهم الرهبانى أو بكتاباتهم . ومن أمثلة هؤلاء :

أ — بالاديوس الذى جاء الى مصر مرتين أمضى خلالهما عدة سنوات تنقّل فيها فى طول البلاد وعرضها ، وزار تجمعات الرهبان وأديرتهم وأخيرا كتب كتابه بستان الرهبان حوالى سنة ٤٢٠ م ..

ب — يوحنا كاسيان الذى زار صحراء نتريا والاسقيط وبعض مناسك الوجه البحرى ومؤسسات باخوم بالصعيد الأعلى ، وقضى عدة سنوات متنقلا بين الآباء النساك مستمعا ومدونا أقوالهم وخبراتهم ، وبعد ذلك كتب كتابيه المعاهد Institutes والمقابلات Conferences فى العشرينات من القرن الخامس فى مرسيليا .

جـ — كتاب تاريخ الرهبان المنسوب للمؤرخ الكنسى روفينوس الأكويلى الذى كتبه كاتب مجهول حوالى سنة ٤٠٠م بعد رحلة الى مصر تمت بين سنتى ٣٩٤ ، ٣٩٥ وانتشر انتشارا واسعا بعد أن ترجمه روفينوس الى اللاتينية .

د — القديس ايرونيموس (جيروم) الذى زار مصر سنة ٣٨٥ م بصحبة الراهبة الرومانية بولا Paula وقد زار وادى النطرون وقام بنقل ما عرفه عن أنظمة باخوميوس الديرية الى اللغة اللاتينية حوالى سنة ٤٠٤م كما كتب قانونا للراهبات بعث به الى الراهبة مارسيللا فى روما حيث كان بيتها قد امتلأ بالعذارى هذا بالاضافة الى كتاباته الاخرى عن النساك المصريين .

هـ — وممن وفدوا الى مصر أيضا وكان لهم نصيب فى نشر الأفكار النسكية والحياة الرهبانية والديرية فى الخارج باسيليوس الكبير وغريغوريوس أسقف نيصص وغريغوريوس العجايبى ويوحنا ذهبى الفم وكذلك أوسابيوس أسقف فرسيل .. Vercelli الذى جمع بعض الاكليريكيين التابعين له وعاشوا حياة نسكية جماعية وذلك بعد أن شاهد الرهبنة فى مهدها بمصر

santamariaegypt.org

حيث قضى بضع سنين منفيا فيها وكذلك ايلاري أسقف بواتييه الذي نفي الى أسوان دفاعا عن الايمان الأرثوذكسي من هجمات الأريوسية وشاهد في الصعيد الأعلى مؤسسات باخوم ونظامه الديري .

(٣) الرهبان المصريون : الذين أسسوا حياة رهبانية خارج مصر ، سواء بذواتهم أو عن طريق الذين وفدوا اليهم من خارج مصر وتتلمذوا على أيديهم ، ثم عادوا الى بلادهم وأسسوا فيها حياة رهبانية أو ديرية . وقد تأسست حياة رهبانية خارج مصر على النحو الآتي :

أولا : في الشرق

(أ) في فلسطين وبراري الأردن وسوريا : وقد تأسست على يد ايلاريون الغزي أحد مواطني غزة (٢٩١ — ٣٧١م) من أبوين وثنيين وفد الى مصر ودرس الفلسفة بمدرسة الاسكندرية الشهيرة . وفي الاسكندرية اعتنق المسيحية وتعمد وأظهر زهدا في العالم . وسمع عن الأنبا أنطونيوس الكبير فذهب اليه وتتلمذ على يديه بعض الوقت . وفعل نفس الشيء مع الأنبا باخوميوس أب الشركة بعد أن سمع عنه وقيل أنه مكث عنده نحو سنتين عاد بعدها الى براري غزة حيث أسس حياة رهبانية على النمط المصري . كما استعان في ذلك ببعض الرهبان المصريين . ومن غزة انتشرت في براري الأردن ، وفي سوريا خاصة المناطق الصحراوية المتاخمة لمدينة أنطاكية .

(ب) في مقاطعات آسيا الصغرى : وقد وصلت الرهبنة أساسا في أقاليم بنطس وكبادوكية على يد ستاتيوس Eustathius الذي ولد لسنة ٣٠٠م وكان أبوه أسقف مدينة سبسطية . وقد درس يوستاتيوس في مصر على يد آريوس . وقد تحمس للحياة النسكية كما عرفها في مصر وتبعه تلاميذ كثيرون . ويذكر سوزومين المؤرخ الكنسي أنه أسس جماعة رهبانية في أرمينيا وپفلاجونيا Paphlagonia وبنطس . لكن المؤسس الحقيقي للرهبنة في كل آسيا الصغرى هو باسيليوس الكبير (٣٢٩ — ٣٧٩م) ، الذي بعد أن أتم دراسته في

santamariaegypt.org

القسطنطينية وأثينا عاد الى قيصرية سنة ٣٥٦ . وبواسطة نساخ أخته ماكريتا قرر أن يحيا حياة النسك . ولهذا سافر الى مصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين (العراق) فأخذته الدهشة مما رأى من ضروب النسك من عمالقة النسك فيها . وعاد باسيليوس الى موطنه سنة ٣٥٨ وبدأ حياته النسكية متأثرا بحياة باخوميوس وأنظمته وأتام فى احدى بقاع البنطس — شمال آسيا الصغرى — تسمى ايبورا على نهر الأيرس تمتاز بجمالها الطبيعى الخلاب وقد وضع قوانينا رهبانية وان كانت لاتقارن بقوانين باخوميوس ، لأنه يغلب عليها طابع النصح التقوى . ومهما يكن من أمر فان أثر باسيليوس من الناحية النسكية كان كبيرا ودائما فى كل الأديرة فى الدولة البيزنطية وفى روسيا ، حتى أنها تنظر اليه كالأب الكبير لرهبنتها . وقد ترجم روفينوس قوانين باسيليوس من اليونانية الى اللاتينية .

(ج) فى العراق : وقد تأسست الرهبنة فى شمالها على يد الراهب القبطى مار أوجين St. Augin الذى ترهب فى أحد أديرة باخوميوس بالصعيد . رحل اليها ومعه نحو سبعين راهبا من مصر الى اعالى العراق Mesoptamia وهناك أسسوا أديرة الموصل وطور عبدين ونصيبين . كما أسسوا جماعات رهبانية فى شمالى بلاد العرب وأرمينيا وفارس .

(د) فى جزيرة قبرص : وقد أسس فيها ابيفانيوس — الذى صار أسقفا على سالاميس فى قبرص وكان يمثل حماسا للحياة النسكية — عدة مؤسسات ديرية . كان ابيفانوس من مواليد قريتبيساندوك .. Besanduke بفلسطين . وفى وقت مبكر من شبابه رحل الى مصر وأمضى فترة ليست قصيرة بين رهبانها . ثم عاد الى مسقط رأسه وأسس ديرا بجوار بلدته . وكان على صلة بايلاريون الغزى مؤسس الرهبنة فى ربوع فلسطين . كما أسس الرهبان الأقباط على أحد الجبال الشمالية بالجزيرة بالقرب من قرية بلاتان ديرا أطلقوا عليه اسم دير القديس مكاريوس . وكان للأقباط هناك أسقف يمتد اختصاصه فيشمل جزيرتى قبرص وورودس .

santamariaegypt.org

(هـ) فى أثيوبيـــا : وصلتها الرهبنة عن طريق الرهبان المصريين الذين وفد الكثير منهم أواخر القرن الخامس ربما بعد قرارات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ . كان بين هؤلاء تسعة رهبان استقروا فى أماكن متعددة من مقاطعة التجرى ، عرفوا بالقديسين التسعة . هؤلاء هم الذين أسسوا الأديرة وثبتوا العقيدة . ويقول الأثيوبيون أن هؤلاء الرهبان التسعة : " من تلاميذ الأنبا باخوم . ومهما يكن من أمر ، فان الرهبنة فـــى أثيوبيا قامت على أيدى الرهبان الأقباط بحسب تعاليم أنطونيوس ومقاريوس وباخوميوس .

ثانيا : فى الغـــــرب

(أ) أسس يوحنا كسيان بعد عودته من صحارى مصر ديرا للرجال باسم القديـــس فيكتور (بمقاطعة) وآخر للعذارى قرب مرسيليا حوالى سنة ٤١٠ م .

(ب) أما القديس ايرونيموس (جيروم) فيعتبر دائما الرهبنة فى الدوائر الرومانيـــة انقطع للحياة النسكية لمدة ٣ سنوات فى صحراء خالكيس Chalcis بجوار انطاكيـــــة (٣٧٥ ــ ٣٧٧) . أتى الى روما وصار مساعدا لأسقفها دماسوس ... Damasus وهناك فى روما كان له تأثير كبير على أفكار الناس من جهة الحياة النسكية ، خاصة بين عدد من سيدات روما الشريفات ــ أرامل وعذارى . ترك أيرونيموس روما سنة ٣٨٢ وتبعتـــــه عدد ممن عشقن الحياة النسكية كمرشد روحى لهن . وقد زار سوريا ومصر ثم استقر فى بيت لحم . وقد أسست بولا Paula وابنتها يوستخيوم ديرا هناك . وبعد ذلك أســـــت ميلانيا الكبيرة ديرا قرب أورشليم . وقد ترجم ايرونيموس أنظمة وقوانين باخوميوس من اليونانية الى اللاتينية فساعد ذلك على انتشارها فى غربى أوربا .

(جـ) وبانتشار الرهبنة فى بلاد الغال (فرنسا) أخذت تنتشر فى جهات أخـــرى من أوربا والجزر البريطانية .

santamariaegypt.org

+ هكذا بواسطة الزائرين والرحالة والرهبان والكتابات المختلفة عبر السنين تكوّن جسر ضخم نقل الى أوربا أنظمة الرهبانية والديرية المصرية • وما لبثت أن ظهرت آثارها على يد الراهب بندكت في القرن السادس كما سيأتي فيما بعد •

(ج) على أنه يجب أن نشير الى نوع من الرهبنة ظهرت في الغرب ، وهو ما يمكن أن نسميه أديرة الأسقفيات • فقد جمع بعض الأساقفة في مراكز ابيراشيتهم بعض الرهبان عاشوا في حياة شركة رهبانية • ومن أمثلة ذلك :

أ — أسس القديس امبروسيوس أسقف ميلان جماعة رهبانية معه في ميلان •

ب — أسس القديس مرتينوس رهبنة في ليجوجية .. Liguge قرب بواتييه Poitiers بفرنسا حوالي سنة ٣٦٢ وبعد أن أخذ من وحدته وصار أسقفا على تور Tours (٣٧٠ — ٣٧١) ، لم يترك الحياة النسكية التي سلكها أولا ، بل جمع جماعة تحت ارشاده قرب مركز على شواطئ نهر اللوار ابيراشيته في مارموتيه Marmoutier كان لها تأثير في كل الاقليم •

جـ — والقديس هونوراتس Honoratus أسس ديرا في لرين ... Lérins على ساحل مونت كارلو بجنوبي فرنسا سنة ٤٠٠ م • أصبح مركزا كبيرا خرج منه مئات عديدون الى أقطار كثيرة • وهناك تتلمذ القديس باتريك شفيع ايرلندا ومؤسس كنيستها •

د — والقديس اوفسطينوس بعد عماده اعتنق الحياة الرهبانية بعد عودته الى مسقط رأسه في تاجست سنة ٣٨٨ • وبعد أن صار أسقفا حوالي سنة ٣٩٥ حوّل مسكنه الى دير ووضع على كل الاكليريكيين واجبات رهبانية ، وعلى الأخص نذر الفقر الاختياري •

ونستطيع القول أن جميع الأديرة الغربية كانت على مثال أديرة صحارى مصر وهذه العلاقة واضحة في كنيسة أيرلندا • فعلى الرغم من بعد المسافة بين أيرلندا ومصر ، فان

santamariaegypt.org

الكنيسة هناك حافظت على علاقاتها مع الكنيسة القبطية • ويوجد فى المكتبة الأهلية بباريس مخطوطة عبارة عن دليل كان يستخدمونه الرهبان الأيرلنديون عند سفرهم الى مصر ومازال يوجد الى يومنا هذا ببلدة دزرت أليده Desert Ulideh (بريت أليدة) قبور سبعة من الرهبان المصريين لاتزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة وبمناسبة بلدة دزرت أليده نقول أنه على الرغم من عدم وجود صحارى بأيرلندا الكن كل البلاد التى أقيمت فيها أديرة بأيرلندا سميت صحارى تعلقا وتعبيرا عن الرهبان الأول القادمين من صحارى مصر •

الرهبنة القبطية فى أوج عظمتها :

بلغت الرهبنة القبطية أوج عظمتها فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين • لكنها بدأت تضعف تدريجيا نتيجة الاضطرابات التى حلت بالبلاد المصرية بسبب الخلافات العقيدية المذهبية وضعف الأباطرة البيزنطيين الملكانيين على الكنيسة المصرية • أما الضربة القاصمة التى وجهت اليها فكانت الفتح العربى لمصر ودخول الاسلام وما ترتب عليه من ارتداد الكثيرين عن المسيحية نتيجة الضغوط التى تعرضوا لها من بعض حكام المسلمين فضلا عن حملات الاضطهادات التى وجهت ضد الكنيسة القبطية بما فيها أديرتها القابعة فى الصحارى •

حسبنا أن نذكر أن أعداد الرهبان والراهبات كانت بالآلاف وأن أعداد الأديرة كانت بالمئات • لقد شيد الأبا باخوم ثمانية أديرة كانت تضم عند نياحته سنة ٣٤٧ أعدادا ضخمة قيل انها بلغت نحو خمسين ألف راهب • وكان الدير الرئيسى قرب مدينة فبو Phbôou وهى الآن طاو مركز دشنا محافظة قنا ، حيث أقام أبا باخوم أكثر سنى حياته الأخيرة كان يسكنه أعداد ضخمة قيل انها بلغت نحو سبعة عشر ألف راهب وبنى أبا باخوم ديرين للراهبات ، كان عدد الراهبات فيهما فى الجيل الخامس يتراوح بين خمسين وستين ألفا حسب رواية بلاديوس • وبالاضافة الى أعداد الرهبان الضخمة

santamariaegypt.org

التي كانت تحت قيادة الانبا باخوم ، فقد كانت هناك أعداد كبيرة أيضا تحت قيادة الانبا شنودة في منطقة أخميم ... والى جانب هذه الأعداد وتلك ، كانت هناك تجمعات كثيرة للرهبان والراهبات نذكر منها الآتي على سبيل المثال لا الحصر :

(أولا) في الوجه القبلي : كان هناك ٤٠٠٠ راهب بأسوان تحت قيادة القديس سمعان ، ونحو ٥٠٠ (خمسمائة) تحت قيادة القديس أبوللو صديق الانبا باخوم في بوبل قرب أسيوط ، ١٢٠٠ (الف ومائتين) راهب قرب انطنوى Antinoe (الشيخ عبادة قرب ملوى) واثنا عشر ديرا وعشرة آلاف راهب ، وثمان عشرة الف راهبة في اكسرنيكس .. Oxyrinchos (البهنسا غربي بني مزار) وخمسة وثلاثون ديرا بأتليم الفيوم ظلت عامرة حتى القرن الثامن الميلادي .

(ثانيا) منطقة بابيلون (فسطاط مصر) : وهذه كانت فاصة بعوام الرهبان والأديرة وجزء من هذه المنطقة هو المعروف بأسم القرافة ، وهي كلمة محرفة ومعناها النيّاح ، حيث كان الرهبان يقومون بنساخة المخطوطات .

(ثالثا) منطقة الاسكندرية والوجه البحري : كانت المنطقة الواقعة غربي الاسكندرية غاصة بالأديرة وتجمعات الرهبان النساك . كان بها في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ٦٠٠ ستمائة ديرا عامرة . أضف الى هذا الأعداد الكبيرة التي كانت بجبل نتريا ومنطقة القلالي تحت قيادة القديس آمون والقديس مكاريوس الاسكندري ونحو ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) راهب تحت قيادة الانبا مقاريوس الكبير في برية شيهيت بوادي النطرون ، ونحو ١٠٠٠٠ (عشرة آلاف) تحت قيادة القديس سرابيون في صحراء أرسينوى ، ونحو ٢٠٠٠ (الفين) راهب قرب مدينة كانوب (أبوقير) ، ونحو ٢٠٠٠ (الفين) راهب قرب بلوسيوم (تل الفرما شرقي بورسعيد) ... وهذا ، وقد ذكر المؤرخ المسلم المقريزي في القرن ١٥ في تاريخه للنتج العربي لمصر نقلا عن المؤرخين النصارى السابقين ، أن سبعين الف راهب خرجوا للقاء عمرو بن العاص من أديرة

santamariaegypt.org

وادى النطرون وهو فى طريق عودته الى مصر بعد تقبل الاسكندرية سنة ٦٤١ م فسلمهم خطاب أمان للبابا البطريرك الأنبا بنيامين ٣٨ • وربما كان هذا العدد مبالغا فيه ولكنه على أى حال يعطينا فكرة عن ضخامة أعداد الرهبان فى منطقة واحدة من مناطق تجمعات الرهبان •

اضمحلال الرهبنة فى مصر :

على أن حالة الازدهار التى حققتها الرهبنة من كافة الوجوه لم تدم طويلا ، اذ بدأت أسباب الضعف والاضمحلال تعمل فيها ابتداء من القرن السابع فصاعدا • وكان ذلك يرجع الى عدة أسباب نلخصها فيما يلى :

(أ) تتالى هجوم البربر البدو على الأديرة المنتشرة فى الصحارى •

(ب) المنازعات الطائفية والعقيدية •

(جـ) دخول العرب مصر •

وربما كان السببان أ ، ب ثانويين ، أما السبب الأساسى والقوى الذى حطم الرهبنة فهو بلا شك السبب الثالث ونعنى دخول العرب مصر • وليس أدل على ذلك من النظر الى ما يأتى :

+ الخراب والدمار الهائل فى عهد عمرو بن العاص فى منطقتين عامرتين بالأديرة والكنائس وهما نسطاط مصر والأسكندرية وما حولهما • اذ لما أستتبت لهم الأمور فى مصر هدمت كنائس وأديرة كثيرة فى بقعة معروفة بالقرافة (نساخ الكتب) ، كانت عامرة بالصوامع والأديرة وكذلك فعلوا بالاسكندرية وما حولها من ديارات • وكذلك خراب أديرة الصعيد على يد جيش مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية فى منتصف القرن الثامن الميلادى •

+ ونهض جميع الرهبان فى "كل الكور وادى هبيب (النطرون) وجبل جراء وأماكن أخرى كثيرة وذلك بأمر الاصبغ بن عبد العزيز والى مصر وفرض جزية دينارا على كل منهم وذلك فى عهد الكسندروس الثانى البطريرك ٤٣ (٧٠٥ — ٧٣٠ م) •

santamariaegypt.org

+ ومن أمثلة ذلك أيضا الخراب الذى شمل برية شيهيت على يد العرب ، وقد أورد فى كتاب تاريخ البطاركة لأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونيين فى عهد البابا مرقس الثالث البطريرك ٤٩ (٧٩٦ — ٨١٩ م) وصفا محزنا لهجوم العرب على أديرة وادى النطرون ونهبهم لها وأسرهم للرهبان وقدمهم للكنائس والقلالى وطردهم للرهبان منها حيث تفرقوا فى المدن والقرى واستشهد عدد كبير منهم ، الأمر الذى لاجله سأل هذا البطريرك الله أن ينقله من هذا العالم وألا يبقيه للحزن على هذه المواضع المقدسة فاستجاب الله لصلاته ونقله اليه .

+ وتخريب كثير من أديرة الصعيد فى عهد البطريرك شنودة الخامس والخمسين (٨٥٩ — ٨٨٠ م) اذ خربوا دير الأنبا شنودة ودير الأنبا صموئيل بالقلمون بأقليم الفيوم ، فضلا عن قتل الرهبان وافساد الراهبات العذارى وقتلهن . وفى ذلك الوقت خربت كنيسة العذراء بأتريب .

+ وما حدث من خراب لكثير من الكنائس فى عهد البابا يوأنس الخامس ٧٢ (١١٤٧ — ١١٦٦) فقد هدموا كنائس كثيرة فى ضواحى القاهرة ونهبوها ، ومنها كنيسة الحمرا بحارة الروم وكنيسة الزهرى المشهورتين .

+ هذا ناهيك عن الخراب والاضطهاد الذى حل بأديرة مصر فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاون فى مدة رئاسة البطاركين الأنبا يوأنس الثامن والتاسع (١٣٠٠ — ١٣٢٠ ، ١٣٢٠ — ١٣٢٧) الأمر الذى يجل عن الوصف حتى قيل أن القبط لم يروا مثله منذ عهد دقلديانوس . وقد لا يصدق المرأ ما أحدثه هذا الملك من دمار للأديرة والكنائس ، لولا أن مؤرخا مسلما هو المقريزى دوّن هذه الأحداث . نيقول المقريزى عن قلاوون " وخرب من الديارات شيئا كثيرا ... وكانت هذه الخطوب الجليلة فى مدة يسيرة قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة ، هلك فيها من الأنفس وتلف فيها من الأموال وخرب من الأماكن ما لا يمكن وصفه لكثرته " .

santamariaegypt.org

(د) وثمة نقطتان أساسيتان نرى انهما من أسباب خضوع الرهبنة المسيحية في مصر وهما الكهنوت والأوقاف .

فيما يختص بالكهنوت

الرهبنة مسلك تعبدي وطريق اعتزال وانفراد في الصحاري والبراري والقفار . ولها مراتب ودرجات روحية مستقلة عن درجات الكهنوت . ومن ذلك آباء الرهبنة الكبار ، ومن يسمونهم " بآباء الاسكيم ΑΓΙΟΙ ΠΑΤΕΡΕΣ ΤΟΥ ΜΟΝΑΧΙΣΜΟΥ من امثلة انطونيوس الكبير وبولا السائح وباخوميوس أب الشركة والأنبا بيشوى والأنبا شنودة رئيس المتوحدين وغيرهم . وقد حرصوا طيلة حياتهم على عدم نوال أية درجة كهنوتية حفاظا على الرهبانية كطريق للتعبد الخالص وصونا لفكرتها الأصلية نقية من كل هدف للبلوغ الى مراتب الكهنوت . ورتبة " قمص الدير " أو " قمص البرية " أو " الايغومينوس " في الرهبنة لاتعني بالضرورة أن صاحبها يحمل درجة كهنوتية ، بل كانت في بعض الأحيان تمنح له باعتباره مدبرا للدير أو البرية أو رئيسا أو أبا له . وقد يطلق عليه الأبا ΑΒΒΑΣ أو " الأنبا " ، وكان لايحمل في بعض الاحيان درجة كهنوتية .

لقد كان الكهنة الذين يقيمون القداسات في أديرة الأنبا باخوم من كهنة البلاد المجاورة لأديرته . وكان باخوميوس يحذر رهبانه من الرتب الكهنوتية ، ولقد اعتذر الأنبا باخوميوس مرارا عن قبول درجة الكهنوت عندما حاول الأنبا سرابيون أسقف دندرة وضع يده عليه لسيامته كاهنا . وفي زيارة البابا أثناسيوس لأديرة باخوميوس في صعيد مصر ، علم باخوميوس أن البابا يحترم رسامته قسيسا فهرب . فلما عرف البابا بهربه ، ترك له رسالة شفوية لدى أولاده الرهبان يقول فيها " سلموا لي على أبيكم وقولوا له بلساني ، لقد هربت من المجد الباطل الذي كثيرا ما يثير الحسد في النفوس . فليمنحك الله سؤل قلبك لذلك أعدك بأني لن أضع اليد عليك قسرا " . ولقد استمر عدم رسامة كهنة من بين رهبان أديرة باخوميوس اكثر من مائة سنة ، حتى بعدها صوت تحذير باخوميوس من الرتب الكهنوتية

santamariaegypt.org

خاصة بعد أن احتضنت الكنيسة الرهبنة كنظام شعرت أنه ممكن الانتفاع به . وجدير بالذكر أن مجمع سرقسطة بأسبانيا الذى انعقد سنة ٣٨٠ م حرّم على الاكليروس أن يصيروا رهبانا حفاظا على المبدأ .

وفيما يختص بالاوقاف نقول :

ان حبس أوقاف وأموال طائلة على الأديرة للانفاق منها على الرهبان تتنافى أساسا مع أحد نذور الرهبنة الاساسية وهو التجرد أو مايسمى بالفقر الاختيارى . فضلا عن أنه لايحقق رهبانيا الغاية الروحية من مبدأ العمل اليدوى على النحو الذى ذكرناه سابقا فالعمل جزء أساسى فى الحياة النسكية على النحو الذى أظهره الملاك للقديس أنطونيوس الكبير . واذا وجدت البطالة وزادت عليها الرفاهية فى الحياة الرهبانية نتجت عنها أضرار كثيرة الأمر الذى ظهر آثاره على الحياة الديرية على مرّ الأجيال .

وواقع الأمر أن الحاجة ماسة الى الرجوع بالرهبنة الى مبادئها الأولى الأصيلة حسب مارتب آباؤها لتصبح بركة لكل من يسلك هذا الطريق ، وأداة فعالة فى خدمة الكنيسة المسيحية فى بلادنا ، فتعود للظهور ثانية الصورة المشرقة التى كانت للرهبنة القبطية فى تاريخها المبكر — ليس فى مصر وحدها بل فى العالم كله .

فضل الرهبنة المسيحية على الكنيسة والمجتمع

كان للرهبنة آثارا عميقة وبعيدة المدى سواء على الكنيسة أو على المجتمع الانسانى هذا ما دعا المؤرخ الالمانى أدولف هرناك ... Adolf Harnak الى أن يجمل آثار الرهبنة العلمية فى عبارة واحدة يقول فيها " لقد وجد الفن والشعر والعلوم فى الرهبنة فمبادئ حضارتنا اذن تعتبر فضلا من تاريخ الرهبنة " والآن نحاول أن نستعرض بعض فضل الرهبنة المسيحية على الكنيسة أولا ثم على المجتمع الانسانى فى مصر والشرق ...

santamariaegypt.org

(أولا) فى مصـــــر

على الرغم مما ألمّ بالرهبنة المسيحية فى مصر من ضعف وما نتج عنه من تدهور واضمحلال خاصة منذ الفتح العربى لمصر حوالى منتصف القرن السابع الميلادى ، نتيجة الحوامـــل والضغوط المختلفة التى تعرضت لها ، لكن — ومع ذلك — فقد كان لها آثار خالدة لا يمكن انكارها فى تاريخها الطويل ، على مستوى الكنيسة والمجتمع ، نلخصها فيما يلى :

(١) فضل الرهبنة على الكنيسة : ونستطيع أن نلمس ذلك من التأمل فى ثلاثة جوانب :

(أ) الجانب الروحى : وهذ أول جانب حمل لواءه الآباء الرهبان ، اذ هو رسالتهم الأولى ، وهذ فهم الأكبر فى اعتزالهم العالم . ولعل من أوضح وأبرز معالم هذا الجانب الروحى : حياة القدوة ، وحياة الصلاة ، ولسنا بحاجة الى ابراز ناحية القدوة الـــتى تعدت تأثيراتها حدود اقليم مصر الى خارجه ، فوفد رجال ونساء من انحاء كثيرة من أوربا وآسيا وأفريقيا — العالم القديم — ثم بعد أن تتلمذوا جيدا فى براري مصر ، عادوا الـــى بلادهم وقد حملوا مشعل الروح وضاء مشتعلا متوهجا أضاء ظلمات ، وأشاع الفرح ، وأنس بالخلاص للكثيرين . وليس أدل على ذلك من أن سيرة راهب واحد — هو انطونيوس الكبير التى دونها البابا اثناسيوس فى منفاه فى أوربا — أشعلت — كما يقول أحد المؤرخيـــن — الرغبة النسكية فى كل غربى أوربا ، وكانت سببا فى توبة كثيرين ومنهم أغسطينوس ، الـــذى بسبب توبته وحياته وأقواله تاب وما زال يتوب فى كل يوم كثيرين وكثيرون ... أما بالنسبـــة لما قدمه الرهبان للكنيسة بواسطة الصلاة ، فيقول أنهم كانوا ومايزالون يؤلفون الصفـــوف الخلفية لجيش الخلاص فى كنيسة المسيح ... ليست الرهبنة حزبا من الأنانية فالراهـــب وان كان يموت عن العالم بارادته لكنه يحيا لحيا لله وللكنيسة ، يذكر احتياجاتها ويطلـــب لاجل نموها ونجاتها . لقد ترك الراهب العالم ليتفرغ لعمل الصلاة ، وحتى مايكون وقوفه أمام الله بدالة ... وهل بذل الدالة فى الصلاة يمكن أن تأخذ من الله ماتريد وماتطلب ؟

santamariaegypt.org

لقد صلى الآباء الرهبان ، ومازالوا يصلون ، لأجل كنيسة المسيح ككل . ولاجل كل أخوتهم المؤمنين . اننا نقرأ أنه فى كل الظروف الصعبة والاضطهادات التى تعرضت لها البلاد والكنائس ، كان الملوك المسيحيون والآباء البطاركة — كل من زاوية احتياجه — يهرعون الى الرهبان والنساك يطلبون منهم الصلاة ، أو بعبارة أدق يطلبون العون ، والعون يوافى من عند الرب ... اننا نعتقد يقينا أن بقاء المسيحية فى مصر على مر الأجيال ، رغم الشطط العنيفة التى واجهتها فيما مضى — والتى قامت فى بعض الاحيان كل تصور — انما يرجع الفضل الاكبر فيه الى الآباء الرهبان ، بفضل صلواتهم وقيادتهم اننا نؤمن بالصلاة . وحاجة الكنيسة اليها حاجة الانسان للهواء والنبات للماء ... لقد انتصر شعب الله قديما — فى حربه ضد عماليق — بشفاعة موسى النبى وصلواته اكثر من قيادة يشوع لجموع المقاتلين . فحينما كانت ترتخى ذراعا موسى كان الشعب ينهزم وحينما كانتا ترتفعان كان شعب الله يتنصر ، وهكذا احضروا حور وهارون لتظل ذراعا موسى مرفوعتين — رمز الصلاة ومثالها — وظلوا هكذا حتى تم لهم النصر على عماليق ، الذى للرب حرب معه من دور لدور ...

(ب) الجانب الايمانى والعقيدى : جاهدت الكنيسة المسيحية منذ قيامها ضد البدع والهرطقات ، وحرمت من شركتها كل من يحيد عن الايمان السليم ، المسلم مرة واحدة للقديسين . ولم يكن آباء الكنيسة من باباوات وأساقفة هم وحدهم الذين ناضلوا فى هذا الميدان ، بل شاركهم فى ذلك كثير من الرهبان . وقصة القديس الانبا اغاثون التى أوردها كتاب بستان الرهبان توضح لنا حرص الآباء على سلامة الايمان ونفورهم من الهراطقة والبدع . " قيل عن القديس الكبير الانبا اغاثون ان أناسا منوا اليه لما سمعوا بعظم اوازه وكثرة دعته . فأرادوا أن يجربوه . فقالوا له : أأنت هو أغاثون الذى نسمع عنك انك متعظم ؟ فقال نعم ، الأمر هو كذلك كما تقولون . فقالوا له : أأنت أغاثون المهذار المحتال ؟ قال لهم نعم أنا هو . فقالوا له أأنت اغاثون الهرطوقى ؟ أجاب حاشا وكلا

santamariaegypt.org

أنى لست هرطوتيا . نسألوه قائلين : لماذا احتملت جميع ما قلناه لك ، ولم تحتمل هذه الكلمة ؟ فأجابهم قائلا : ان جميع ما تكلمتم به علىّ قد اعتبرته ربحا ومنفعة الا الهرطقة لانها تبعدنى عن الله ، وأنا لا أشاء أن ابتعد عنه . فلما سمعوا تعجبوا من اقراره ومضوا منتفعين " .

وليس أدل على ذلك من أن الانبا انطونيوس الكبير الذى لم يترك وحدته وينزل الى العالم سوى مرتين ، كانت احداهما سنة ٣٢٨ م لمساندة البابا اثناسيوس فى جهاده ضد البدعة الأريوسية . وكذلك فان الانبا شنودة رئيس المتوحدين ترك خلوته ورهبانه ورافق البابا كيرلس الكبير سنة ٤٣١ فى ذهابه الى مدينة أفسس بآسيا الصغرى حيث انعقد المجمع المسكونى الثالث .

وللمركز الرفيع الذى كان يتمتع به كثير من الرهبان فى نظر معاصريهم روحيا ولاهوتيا فقد ركز بعض الملوك المسيحيين الهراطقة لكسب ولاء لمعتقدهم الوخيم ، لعلمهم أن ذلك يسهل مهمتهم فى اقناع افراد الشعب . لكن نظر لصلابة الآباء الرهبان وتمسكهم بالايمان القويم ، فقد باءت جهودهم بالفشل . ونقدم لذلك مثلا ما حدث مع القديس الانبا صموئيل المعترف ... أراد الملك البيزنطى هرقل (٦٣١ — ٦٤١) أن يجبر أقباط مصر — وهم من رعاياه فى ذلك الوقت — على قبول قرارات مجمع خلقيدونية وطومس لاون التى رفضتها الكنيسة القبطية . ولتحقيق ذلك استخدم صنوفا من الضغوط والاضطهاد منها أنه أقام بطريركا دخيلا اسمه قيروس بدل البابا بنيامين ٣٨ . وقد أنفذ قيروس هذا مندوبا عنه برتبة كبيرة ومعه مائتا جندى الى برية شيهيت لاجبار الرهبان على قبول طومس لاون . ذهبوا الى دير القديس مقاريوس وجمع الرهبان وقرأ طومس لاون وحاول أن يظفر بموافقة الرهبان عليه . لكنهم قاطعوه بالصمت التام . حنق عليهم مندوب قيروس وتضايق من عنادهم وهددهم بالعقاب . فانبرى له القديس الانبا صموئيل (المعترف) وأعلن رفضه لطومس لاون ولقرارات مجمع خلقيدونية . ثم أمسك بالطومس وبعد أن حرم كل ما حواه من

santamariaegypt.org

معتقدات فاسدة ومعها قرارات خلقيدونية وكل من يشارك بالايمان بها ، أمسك بالناموس ومزّقه وألقاه خارج الكنيسة . . . أما نتيجة هذه الجرأة والشهادة للحق فهي أن مندوب قيروس أمر بضربه ضربا مبرحا . فضربه الجند بوحشية وقلعوا احدى عينيه . فاكتفوا بذلك وأمر المندوب بطرده من شيهيت . فأخذه تلاميذه من بين أيديهم بين الحياة والموت . وحملوه الى خارج الدير واحتموا في مغارة . وقد تشددت صحته بأعجوبة . ثم ترك برية شيهيت واتجه جنوبا الى جبل القلمون بأقليم الفيوم .

(ج) الجانب التأليفي في العلوم الدينية : وفضلا عما تقدم ، فقد كان بين الرهبان علماء فطاحل في شتى العلوم الدينية ، ولاهوتيون مبرزون ساندوا الكنيسة بعلمهم ومؤلفاتهم في شتى ميادين العلوم الدينية — تلك المؤلفات التي ذخرت بها مكتبات الأديرة ، والتي صارت مادة خصبة ودسمة لخدام الدين في الكنيسة على مرّ العصور .

(٢) فضل الرهبنة على المجتمع :

ويمكن أن نلمس ذلك من زاويتين ، التربوية والاجتماعية :

(أ) الناحية التربوية : يتضح فضل الرهبنة على الناحية التربوية اذا تذكرنا أن آباء الرهبنة الكبار ومؤسسيها شدّدوا على أهمية التعليم في حياة الراهب . فالأنبا باخوميوس أب الشركة قضى على الامية في أديرته بأن جعل القراءة والكتابة شرطا للالتحاق في أديرته . واهتمام الأنبا شنودة رئيس المتوحدين بتعليم رهبانه وتثقيفهم واضح أيضا حتى غدوا من أكثر طبقات المصريين نصيبا في التعليم خاصة في الاقليم الذي كانوا يعيشون فيه . بل أنه لشدة إيمانه بالتعليم وسّع نطاق نشاطه التعليمي حتى شمل المنطقة المجاورة لديره .

وكان الأنبا انطونيوس الكبير يعلم رهبانه تارة على إنفراد وأخرى مجتمعين ، وهذا واضح مما خلّف من عظات نشرت . وهذا حذو آباء الرهبنة الكبار من أمثال مقاريوس الكبير أب الاسقيط الذي له أيضا عظات نشرت ، والقديس باخوميوس أب الشركة الذي نظّم روسا

santamariaegypt.org

عامة يتدمها رؤساء الأديرة الباخومية بأنفسهم يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة والتعليم المسيحى • وكان يحضرها جميع الرهبان إجباريا ••• ولقد ذهب الأنبا شنودة الى ماهو أبعد من دائرة رهبانه حينما كان يفتح أبواب ديره لعامة الشعب فى أمسيات السبوت لحضور القداس الالهى صبيحة الاحد • وكان ينتهز فرصة تجمع آلاف من الناس داخل ديره • ويعظهم عظات هادفة لاستئصال الخرافات التى كانت شائعة والتقاليد الوثنية ويرشدهم الى كل ما هو حق •

وقد عكف الرهبان على حفظ اجزاء من الكتاب المقدس عن ظهر قلب • وكان باخوميوس يشترط فى طالب الرهبنة أن يحفظ عشرين مزمورا ورسالتين من العهد الجديد وقد ذكر بلاديوس فى كتابه بستان الرهبان ، الراهب مرقس الذى سرد الأناجيل امامه وكان عمره وقتذاك مائة سنة • وكتب عن راهب اسمه هارون كان يصحبه فى طوافه اثناء رحلته فى البرية ، وقال انه كان يحفظ خمسين مزمورا وسفر أشعياء وجزء من سفر أرميا وسفر الامثال وانجيل لوقا والرسالة الى العبرانيين • وقد سجل روفينوس الاكويلى — الذى زار مصر حوالى سنة ٣٧٢ وأمضى نحو سنتين فى الاسقيط — دهشته من مقدرة الرهبان على حفظ أجزاء كثيرة من العهد القديم •

هذا ، وبعد أن ضعفت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فى نهاية القرن السادس الميلادى نتيجة الضغوط والاضطهادات التى تعرضت لها الكنيسة ومؤسساتها ومنشآتها بصفة متوالية انتقلت القوى التربوية من الاسكندرية الى الصحراء — خاصة برية شيهيت (وادى النطرون) فصارت الأديرة مراكز تربوية عظيمة لعلوم الكنيسة • وقد اعتبرت الأديرة كمخازن لكنوز العلوم والمعرفة ، سواء منها الدينية او المدنية • وهى التى قادت الحركة التربوية فى مصر خلال العصور الوسطى • فالى جانب البحوث والدراسات التى تركزت داخل الأديرة ، فقد عهد الى بعض الرهبان فى انشاء مدارس أولية (كتاتيب) فى قرى وادى النيل لتعليم ابناء الاقباط •

santamariaegypt.org

هذا الى جانب نتاج الرهبان فى التأليف كما ذكرنا خاصة فى العلوم الدينية ، الذى شجع على نموّ الجو الروحى فى الأديرة ، وما يضفيه من خبرات روحية نسكية . أضف الى كل ذلك نتاج الرهبان فى ميدان النساخة — نساخة المخطوطات — فى ذاك الوقت الذى لم تكن الطباعة قد عرفت فيه ، وكان لهذا العمل أثره فى نشر التراث الثقافى والدينى .

(ب) الناحية الاجتماعية : كان للرهبنة آثارا اجتماعية بعيدة المدى فى نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطى ، فسادته موجة من الزهد وأخذ يقتدى بالرهبان وينقل عنهم كثيرا من ممارساتهم وأصوامهم . ولما ذاعت فضائل الرهبان ، آثر الشعب أن يختار قادته الروحيين . وكانوا يحملونهم قصرا الى المدن لتولى مناصب الاسقفية والبطريركية . ومنذ ذلك الحين كثرت الانطباعات الرهبانية النسكية فى حياة المجتمع القبطى ان النماذج الحية للفضيلة والتقوى وانكار الذات التى تألقت فى حياة أولئك الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن الفضيلة ووصايا الدين أمور واقعية يمكن الوصول اليها وليست مجرد مثل عليا أو مبادئ نظرية يتخيلها الدين ، الأمر الذى يعمر قوى الخير فى المجتمع على قوى الشر ، فلا يتطلع اليأس الكثيرين فى موجات الانحلال والمادية والالحاد بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد فى سبيل الفضيلة تشبها بهؤلاء المتعبدين ولعل هذا مما حفظ للمجتمع المصرى طابعه الدينى على مّر العصور .

وثمة ظاهرة اجتماعية أخرى . فالمرضى والمازحون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتمسون التعزية والمشاركة والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالايمان ، وغمر السلام قلوب كثيرين بفضل صلواتهم وتعزياتهم وارشاداتهم وقدوتهم ، تلك التى كان لها أكبر الاثر فى تجديد الرجاء لمن يقصدونهم . لقد كانت الأديرة أشبه بموانى السلام فى أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات ، اذ يجد اللاجئون اليها الأمن والدواء والطعام . وعن ذلك قال هرناك المؤرخ الألمانى " ان النساك المصريين كانوا يعتبرون فى جميع العصور — حتى فى نظر الغرب — آباء ونماذج للحياة المسيحية الحقيقية " .

santamariaegypt.org

(ثانيا) فى الغـــــرب

والرهبنة فى أوربا التى هى مدينة لرهبنة مصر تمكنت من معالجة أحوال المجتمع الدينية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية .

فى مجتمع أوربا العصور الوسطى كانت المدارس الملحقة بالأديرة من أهم مصادر التعليم وصارت فيما بعد نواة للجامعات بالمفهوم الحديث ، ومن آثارها جامعتى اكسفورد وكامبردج بانجلترا . كان الدير كالواحة فى الصحراء أو كالمنار المضىء وسط ظلمات الجهل يجذب اليه جميع الطبقات الاجتماعية من الفقراء والعبيد والمظلومين والمنكوبين . وقد ألحقت بكل دير دار لاضافة الغرباء ، ودار أخرى أشبه بالمستشفيات الحديثة لعلاج المرضى وبعض الملاجىء .

كما كانت الأديرة فضلا عن ذلك مجمعا للفنون والعلوم والحرف والصناعات ، ومرتعا لاعمال التبشير بالمسيحية فى البلاد الوثنية . فكريستوف كولومبوس مكتشف امريكا صحب معه لفيفا من الرهبان الدومنيكان ، ترك بعضهم ليبشروا الهنود الحمر . وكذلك فعل فرديناند كرتز مكتشف بلاد المسكيك ، وبيزارو مكتشف بلاد بيرو والبرازيل ، وبطرس الديفيا مكتشف شيلى فى أمريكا الجنوبية . فلقد سحب هؤلاء معهم عددا كبيرا من الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان والبندكتيين واليسوعيين . لقد بلغ من تأثير الرهبنة فى مدينة العصور الوسطى أنها أصبحت عاملا قويا على نشر المسيحية بين الشعوب المتبربرة على يد الرهبان .

ورهبان العصور الوسطى هم الذين حفظوا لنا تراث الأقدمين ، اذ كانوا يقومون بنسخ كتاباتهم وترجمتها وتفسيرها . وقد اشتهر منهم علماء جهابذة من أمثال الراهب الانجليزى بيدا (٦٧٥ — ٧٣٥) الذى كان أكبر مؤرخى عصره ، والراهب الفرنسيسكانى روجر بيكون (١٢١٤ — ١٢٩٢) أكبر علماء الطبيعة والفلك فى العصور الوسطى ، وواضع أسس العلم التجريبى الحديث . كما اشتهر كثير من الرهبان فى نواحى الفنون المختلفة التى خلدت لنا تراثا جميلا .

santamariaegypt.org

تعريف بالرهبنة في الغرب

وقبل أن ننتهي من موضوع الرهبنة نرى من المفيد أن نقدم في عجالة شيئا عن الرهبنة في الغرب حتى بذلك تكتمل لدينا صورتها في العالم أجمع القديم والمعاصر .

سبق أن أشرنا الى الراهب بندكت (٤٨٠ — ٥٤٧ م) الذي يعتبر بلا شك المؤسس الحقيقي للرهبنة في غربي أوربا ويحسن أن نعرف شيئا عنه :

ولد سنة ٤٨٠ م في مدينة نرتشيا بايطاليا من أسرة عريقة . أظهر منذ حداثته ميلا للفضيلة . تثقف بعلوم عصره في مدارس روما ، وبعد أن أمضى فيها سبع سنوات عاد الى مسقط رأسه لأنه خشي على حياته الروحية من تيار العالم الجارف . أظهر ميلا للزهد في الدنيا ، فاعتزل الحياة العامة الى كهف سوبياكو .. Subiaco الذي يبعد عن روما نحو ٤٠ ميلا ، كان يرسل اليه خادمها ناسك في تلك الجهة ما يحتاجه من الخبز .. وما لبث أن اشتهر أمره وتبعه كثيرون تتلمذوا على يديه ... ثم اعتزل الى مونت كاسينو قرب نابلي سنة ٥٢٠ حيث أسس ديرا ، ظل هو الدير الرئيسي للرهبنة البندكتيه في العالم لقرون طويلة . هناك وضع قانونه الجديد الذي استمده من قوانين الشركة لباخوميوس وأصبح قانون الحياة الديرية في أوربا كلها فيما بعد . وقد ميّز بندكت في قوانينه بين الديريين والرهبان المتوحدين . أسس أديرة أخرى للرجال ، كما أنشأ أديرة للعذارى ترأست أحدها أخته سكولستكا .. Scholastica

هذا هو أساس الرهبنة الغربية ... لكن ينبغي أن نشير الى ظهور رهبنات كثيرة في أوربا في العصور الوسطى ، وكلها ظهرت كنتيجة للظروف التي كان يمر بها المجتمع الاوربي في العصر الوسيط . وكأمثلة لذلك نقول أنه بسبب الحملات الصليبية التي كان ينقذها الغرب الى الشرق لاسترداد الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، ظهرت رهبنات عرفت باسم " الرهبنات المتجندة " ، وقد شاركت في الغزوات الصليبية ، " ورهبنة الثالوثيين "

santamariaegypt.org

وكانت غايتها انقاذ أسرى تلك الحروب ... وبسبب ظلم الجهل والفساد الذى تفشى في المجتمع الأوربى فى تلك العصور ، وبسبب الضعف الذى أصاب المجتمع الكنسى فى ذلك الجزء من العالم نشأت " رهبنة الأخوة الوعاظ" وهى المعروفة باسم رهبنة الدومنيكان - نسبة الى مؤسسها الراهب دومنيكوس (١١٧٠ ـ ١٢٢١) ورهبنة الأخوة الصغار التى أسسها الراهب فرنسيس الأسيسى (١١٨٢ ـ ١٢٢٦) وهى المعروفة باسم رهبنة الفرنسيسكان وكانت رسالتهم وعظ الناس وحضهم على التوبة .. ثم الرهبنة اليسوعية التى أسسها الراهب أغناطيوس دى لويولا سنة ١٥٣٤ ، والتى قامت كرد فعل لحركة الاصلاح الدينى التى تزعمها لوثر . وكان هدف هذه الرهبنة مقاومة أعداء الكنيسة الكاثوليكية وسميت رهبنة اليسوعيين اشارة الى أن أعضاءها جنود جدد روحيون أنصار لدين يسوع المسيح

والآن بعد أن عرضنا لفكرة الرهبنة فى الغرب بصفة عامة ـ نقف لنعرض شيئا عن أهم رهبناته التى يمكن تقسيمها الى أربعة أنواع ظهرت فى عصور مختلفة .

(١) وهى المعروفون باسم ... Moines, Monk أى الرهبان بالمعنى الأصيل للكلمة وهؤلاء خصصوا حياتهم للعبادة والتأمل ، ويتبعون قوانين بندكت . ويدخل ضمن هذا النوع الرهبان البندكتيون Benedictins والسيسترسيان .. Cisterciens والكارتوزيان Carbusians, Chartreux والكامالدول .. .. Camaldules

(٢) وهم المعروفون باسم Chanaines régulier أى الكهنة العائشون حسب القانون الرهبانى . وهؤلاء يعيشون حياة الشركة ويخدمون الشعب باقامة القداسات وسائر الخدمات الطقسية . فرسالتهم الأساسية فى خدمات الكنيسة الطقسية . وأفضل مثال لهذا النوع الرهبان البريمونتريه .. Prèmontrés وهؤلاء يسيرون حسب قوانين القديس أوغسطينوس التى جمعت بين خدمة الكهنوت والحياة الديرية . وقد ظهر هذا النوع فى القرن الثانى عشر .

santamariaegypt.org

(٣) وقد اشتهر باسم الرهبان المتسولين Religieux Mendiants يهم نوع من المكرسين يعيشون حياة الشركة الديرية وقد أخذوا عن قوانين بندكت وجوب الاشتراك في جميع طقوس الكنيسة والتسبحة ، وكذا بعض الممارسات الرهبانية كالصوم والصمت والاعتكاف ... لكن عليهم ان يخدموا الكنيسة ليس فقط باقامة الطقوس النسية كالنوع الثاني الذي أشرنا اليه بل أيضا بالوعظ والكرازة وسائر الخدمات الرعوية والتبشيرية والدراسات اللاهوتية العالية والتأليف والدفاع عن الايمان ... ويدخل في هذا النوع الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان والآباء الكارم ... Carmes والاوغسطينيون Ougustins

(٤) الجماعات الرهبانية الحديثة : وأولها جماعة الآباء اليسوعيين . وهذه الجماعات قائمة أساسا لأجل الخدمة والكرازة والتبشير وقد احتفظت ببعض المبادئ الرهبانية كنذور الطاعة والعفة والفقر الاختياري . ولكنها لا تلتزم بالممارسات الرهبانية كالأصوام والصمت والاعتكاف ، وبالاشتراك الجماعي في طقوس الكنيسة .

والآن ، بعد هذه النظرة العامة للرهبنة الغربية ، نستعرض بعض الرهبنات البارزة التي تمثل الاتجاهات الرئيسية للرهبنات الغربية .

رهبنة البندكتيين (O.S.B - ordre de St. Benoit)

وأسسها الراهب بندكت على نحو ما ذكرناه . وقد ترك لرهبانه القوانين المعروفة باسمه . وقد سار ، ومازال يسير على هذه القوانية الرهبان البندكتيون على اختلاف شعبهم ، وجميع الرهبان الغربيين الذين يعتبرون ذواتهم رهبانا بالمعنى الاصيل للكلمة Monks Moines أما عن قوانين بندكت الرهبانية نتلخص فيما يلي :

+ ينظم الراهب الى دير معين ويبقى فيه طوال حياته ولا يجوز أن تنتقل منه الى دير آخر .

santamariaegypt.org

+ يتعهد الراهب المستجد أن يسلك مسلك الرهبان وأن يكون مطيعا لرئيس الدير وهذا التعهد يشتمل ضمنا على كل ما يتعلق بالحياة الرهبانية .

+ يعيش الرهبان معا حياة الشركة الكاملة . يأكلون معا ويدرسون معا ويعملون معا بل ينامون في حجرة مشتركة وليس في قلالي منفردة .

+ لايرقى الرهبان الى الدرجات الكهنوتية ، باستثناء أفراد قلائل يرسمون كهنة وشمامسة لخدمة الدير .

+ يقضي الراهب وقته في الصلاة والقراءات الروحية في الكتب المقدسة وأقوال الآباء والكتابات النسكية وبعض الأعمال اليدوية . وأهم طقس في حياة الراهب هي اشتراكه في الصلاة الطقسية والتسبحة المقدسة ...

+ ونصت هذه القوانين على عدد من الممارسات الرهبانية كالصوم من شهر سبتمبر الى عيد القيامة والامتناع التام من أكل اللحم طول السنة . وممارسة الصمت والاعتكاف داخل الدير .

وبدراسة هذه القوانين يتضح لنا ان بندكت لم يبتكر نظاما رهبانيا جديدا بل اعتمد على الانظمة الرهبانية السابقة خاصة قوانين الأنبا باخوم وباسيليوس الكبير . وهو يستشهد بكثرة باختبارات الرهبان المصريين وأقوالهم كما أورد ها يوحنا كاسيان . لكن — ومع ذلك — يرجع اليه الفضل في تكييف الأنظمة الرهبانية الشرقية لتلائم الحياة في الغرب . وقد نالت قوانينه شهرة كبيرة في الغرب وصارت هي الأساس الذي قامت عليه معظم الرهبنات الغربية خاصة ما ذكرناه تحت النوع الاول .

رهبنة الكارتوزيان :

وهي تجمع بين نظامي التوحد والشركة الديرية . وأديرتهم مكونة من كنيسة تتوسط قلالي الرهبان . وهذه القلالي منفصلة بعضها عن بعض . وكل قلاية بها ثلاثة حجرات وحديقة صغيرة ولا يخرج منها الراهب الا للذهاب للكنيسة . وكل راهب ينظم صلواته

santamariaegypt.org

وقراءاته وحياته الخاصة على انفراد داخل قلايته ، ولا يتصل بباقي رهبان الدير . فان احتاج الى طعام أو كتب معينة طلب ذلك كتابة فيحضرونها على شباك قلايته .. وهؤلاء الرهبان يتبعون نظاما صارما في الصوم على مدار السنة .

رهبنة الفرنسيسكان .. .. Franciscains

(أو رهبنة الاخوة الصغار .. .. .. O.F.m - ordre des frères mineurs)

وهي أول رهبنة مع الدومنيكان — أدخلت خدمة الكرازة في أنظمتها . واهتمت بالتبشير في بلاد غير مسيحية . فقد أسسها الراهب فرنسيس بشر في بعض البلاد الاسلامية الشرقية كما أرسل بعضا من رفقائه الى الاندلس حيث استشهدوا في سبيل الايمان . وبعد وفاته وصل رهبانه الى بلاد الفرس والصين والهند وبشروا فيها بالمسيحية .

وتميزت هذه الرهبنة في عصورها الأولى بالتمسك الشديد بالفقر الاختياري . ولا يحق للرهبان الفرنسيسكان أن يمتلكوا شيئا البتة لا كجماعة ولا كأفراد . فكانت كل املاكهم توضع باسم البابا الى أن عين وكلاء عنه في ادارة املاك الفرنسيسكان .

رهبنة الدومنيكان .. Dominicains

أو رهبنة الاخوة الكارزين ... (O.P - ordre des frères prêcheurs)

وجميع الرهبان الدومنيكان في رهبنتهم يجمعون بين الممارسات الرهبانية كالصوم والصمت والاعتكاف وإقامة التسبحة وبين خدمة الكرازة . وقد برعوا في العلوم اللاهوتية اكثر من غيرهم . ومنهم العلامة توما الاكويني الذي يعتبر اكبر علماء اللاهوت في الكنيسة الغربية وكثيرون منهم اخذوا على عاتقهم الدفاع عن الايمان الكاثوليكي ضد الخارجين عليه وكذلك دراسة الديانات الاخرى والرد على المبادئ الالحادية والهدامة . وهم يوزعون وقتهم بين الصلاة والدراسة والتأليف وتحرير المجلات الدينية والوعظ وخدمة الشباب .

santamariaegypt.org

رهبنة اليسوعيين (S.J - Societatis Jesus)

وهى أول جماعة رهبانية أبطلت الالتزام بالعبادة الجماعية الطقسية وأبدلتها بممارسات فردية مثل ساعة التأمل اليومى وفحص الضمير مرتين فى اليوم . وكذلك أبطلت الالتزام بالممارسات الرهبانية كالصوم والصمت والاعتكاف ، وأعطت أهمية اكبر لمبدأ الطاعة . ويهتم اليسوعيون بخدمات مختلفة كالتبشير والتدريس فى المدارس والكليات اللاهوتية والارشاد الروحى للأفراد والجماعات والرعاية الروحية للمستشفيات والسجون والوعظ والتأليف . وهم يمثلون آخر ما وصل اليه تطور الرهبنة فى الغرب .

رهبنة أخوة يسوع الصغار

وظهرت هذه الجماعة فى عصرنا الحالى ، وهؤلاء يعيشون فى بيوت وسط المدن ويعمل بعضهم فى المصانع حتى يتحقق لهم الاتصال بمشاكل الناس والاحساس بها .